مصطفى عبيد

هوامش التاريخ

من دفاتر مصر المنسية



الرواق للنشر والتوزيع

هوامش التاريخ (من دفاتر مصر المنسـية)
مُصطفى عبيد
نسخة الكترونية خاصة بكندل أمازون
الغلاف: أحمد مراد
التصحيح اللغوي: محمد حمدي
رقم الإيداع: ٢٥٦٣٨/ ٢٠١٧
الترقيم الدولي: ٤ - ٠١٨ - ٨٢٤ - ٩٧٧ - ٩٧٨



١٨٦ عمارات امتداد رمسيس ٢ أمام أرض المعارض مدينة نصر
هاتف: ٠٢٢٠٨١٢٠٠٦
rewaq2011@gmail.com
facebook.com/Rewaq.Publishing

إهداء

إلى الطغاة والقتلة والسفلة وأهل الشر...
لولاكم ما قرأنا ولا كتبنا ولا درسنا التاريخ

«الكتابة العربية المعاصرة هي في معظمها نوع من البحث عن زمن ضائع، بشكل أو آخر: في الماضي فيستعاد، أو في الحاضر فيقبض عليه، أو في المستقبل فيُنتظر مجيئه، هذا وجه من وجوه نقصها.. كلا، لا البحث عن زمن ضائع، بل نبش المطموس المكبوت المهمَّش المنسي، لا في الجماعة وحدها، لا في التاريخ وحده، وإنما في الذات أيضا، نبشُهُ، واستنطاقه: بهذا نواجه الحرية، ومسؤولية الحرية، وفي ضوء هذه المواجهة، تكمن رؤية طريق ما».

أدونيس

قبل البداية

التاريخ مُمتع، لذيذ، ساحر، وقادر على تعليمنا، وإدهاشنا، وبث دروس البشر وعِبر القدر في نفوسنا. ولا قدرة على التعايش مع الحاضر أو التطلع إلى المُستقبل دون قراءة ناقدة لما مضى، بعقول واعية مُجردة لا تحب أو تكره، وإنما تسعى للتعلم والتثبت وإنصاف المُفترى عليهم ورد الأباطيل.

إنَّ التاريخ المصري الحديث يمشي على عكازين، وما هو معلوم بالضرورة من حوادث الماضي صار مجهولا بالضرورة، وما يُنشر من أخطاء، وما يُذاع من خطايا كفيل بقلب تاريخ مصر من الأساس.

ولا شك أن كم السقطات فيما يُنشر من تاريخ هذا الوطن يعني أنَّنا توقفنا عن القراءة، وامتنعنا عن البحث، واستسهلنا اصطياد المعلومات من «الإنترنت» دون مراجعة أو عناية. استسهال تحول إلى استهبال فتغيرت تواريخ الحوادث، وتبدَّلت أدوار صانعيها حتى نسي الناس أن عظماء وخونة ودهاة ولصوصا وأبطالا عاشوا على هذه الأرض.

وليس هُناك من شك أن التاريخ المصري مُغلّف بأغلفة المحبة والكراهية، وموجه بتصورات الحزبية والقناعات الشخصية، وللأسف بحسابات المصلحة في كثير من الأحيان. لذا فإن ما يُقال ويُكرر هُنا وهُناك من أن «التاريخ المصري الحديث لم يُكتب بعد» صحيح إلى حدٍ كبير، وليس أدل على ذلك من قراءة ما تركه لنا المؤرخ عبد الرحمن الرافعي من كُتب تغلّبت فيها قناعاته ومواقفه الشخصية على كثير من الحقائق وغابت فيها الموضوعية تمامًا، فتحولت أفعال الخير إلى شر، وانقلب كثير من الأبطال إلى أقزام، والعكس.

وبعيدًا عن دقة الأحداث وصحة الحوادث، التي أتصور أنها ستُصحح نفسها ذاتيًا مع تعاقب الأنظمة الحاكمة وتغيُر كُتابها، وتجرُد أجيال أخرى قادمة من أي مصلحة تدفعها لترجيح حدث أو تنزيه شخصية، فإن جانبًا هامًا وضروريًا من التاريخ المصري لم يُكتب بعد، وبخاصة الجوانب الاجتماعية والاقتصادية والثقافية.

إنَّه من المُلاحظ أن جميع المؤرخين انكبوا لعقود طويلة على تدوين وتحليل التاريخ السياسي، واعتنوا عناية فائقة بكُل ما صدر عن السُلطة من أفعال ومواقف، واتفقوا واختلفوا حول شخصيات الحُكام وحاشياتهم، وكبار الساسة، والمؤثرين في صناعة القرارات، من عصر المماليك إلى عصر الرئيس عبد الفتاح السيسي، حتى لا يُمكن أبدًا أن تجد حاكمًا واحدا لم يُنتقد، ولا تجد حاكمًا لم تُذكر له سجايا وإنجازات خاصة في التاريخ الحديث.

كان ذلك هو ديدن كُتاب التاريخ ومُحلليه على الدوام، كأنَّ صناعة التاريخ مقصورة على الكبار، وكأنَّ أفعال الصفوة هي وحدها التي تستحق المُتابعة، وهكذا تجاهل المؤرخون تاريخ المُجتمع المصري، وجاءت قراءات الواقع الاجتماعي والاقتصادي ضمن هوامش الكُتب، وفي شذرات مُتفرقة هُنا أو هُناك، حتى صار جمعها وعرضها أمرًا بالغ الصعوبة، إلا باستثناءات محدودة

لمؤرخين وباحثين جُدد شطبوا تاريخًا مُقولبًا تم حشره في أدمغة الطلبة، وقدموا قراءات جديدة للواقع، مُركزين على علم جديد تحت لافتة «تاريخ ما أهمله التاريخ».
وهذا الكتاب محاولة متواضعة لقراءة تاريخ مصر المجتمع لا السلطة، محاولة لفهم العامة لا النُخبة، الناس العاديين لا المُميزين، المحكومين لا الحُكام وسدنتهم. لقد كانت مُتعتي الدائمة أن أقول ما لم يُقل، وأكتب ما لم يُكتب، وأطرح ما هو من غير المُعتاد أن يتم طرحه، وأن أتفق وأختلف وأشتبك وأحلل وأبحث وأشاغب وأناقش بتحرر كامل، من خلال ظلال الشخصيات وهوامش الأحداث. كُنت ـ ولا أزال ـ مُحبًا للتاريخ، حُكامًا ومحكومين، وأبطالاً وخونة، وأخيارًا وفُجارًا، مُذ بدأت رحلتي في القراءة قبل ثلاثة عقود، لكنَّني مُحب أكثر لغرائب الحكايات وعجائب الأمور وما هو مُخجل من فعل، وما هو مُثير من رد فعل.
إنَّ التاريخ بقصصه وطرائفه وبشائعه يجري في شراييني مُذ كُنت صغيرًا، طلبًا لإجابات عن أسئلة مُلِّحة حول أناس كانوا قبلنا على هذه الأرض، وحول ما فعلوه وما قدموه. وبُحكم انتمائي لعصر ما قبل الإنترنت أتذكر جيدًا، وأنا طالب صغير في الصف الثاني الإعدادي بمدرسة النقراشي التجريبية، حيرتي وبحثي الدؤوب عندما طلبت مني مُدرسة الصحافة تحرير صفحة عن النقراشي باشا، والذي سُميت المدرسة على اسمه، وفشلت فشلاً ذريعًا لأن الرجل خارج المناهج الدراسية، وأن كثيرين من الناس لا يعرفون عنه شيئًا. يومها تولدت لدي رغبة عارمة في قراءة ما مضى، والغوص في التاريخ طارحًا أسئلة وباحثًا عن إجابات حول كثير من الأمور. واندهشت لخطايا التاريخ المدرسي الذي صبوه صبًا في عقولنا، وتيقنت أن عمليات تزوير فاضحة جرت لخدمة السُلطة وقناعاتها عبر العصور. وسألت نفسي مثلاً ماذا كان يُمكن أن نُسمي حركة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ لو أنها فشلت؟ وهل كان كُتاب التاريخ سيذكرون الضباط الأحرار باعتبارهم أبطالاً أم متمردين؟ وماذا كانوا سيقولون عن أسرة محمد علي لو ظلَّت في الحُكم؟
وقرأت مذكرات الساسة والمسؤولين، وهالني كم الكذب المصبوب بين طياتها، وتعلمت أنها مُرافعات دفاع ضعيفة لمُتهمين يشعرون دائمًا بالخوف من أحكام التاريخ المُتجردة، وسعيت للبحث في تناقضاتها واختلافاتها حتى عرفت كيف أستبعد الغث، وكيف أرد المواقف اللامنطقية والمسرودة بطريق أحادي. ورويدًا سعيت لدراسة الصُحف والمجلات القديمة وعنيت بها عناية فائقة، وقارنتها ببعض الوثائق الرسمية المُتاحة، وخلصت إلى سلاسل من الأمور والحكايات التي لم توثق ولم تُطرح، والتي يُمكن أن تصُب في باب ما أهمله التاريخ، وأعددت كثيرًا من الدراسات، منها ما أنشره في هذا الكتاب الذي يحاول إشعال ضوء في ظلام معارفنا.
ورغم ذلك فإن هذه الدراسة وغيرها من الدراسات لا تدعي السبق، ولا تتشبث بتقديس البشر أو الجزم بصواب فعل أو خطأ فاعل، وإنما هي تُثير قرون استشعار النقد، وتحتفي بكسر المُسلمات، وتُقدم الأسئلة من خلال

دراسات تستخلص اللون الرمادي، فلكل حدث رابحون وضحايا، ولكل شخصية جوانب خير وجوانب شر، ولكل فعل نواحيه المُضيئة والمُظلمة، وحسبنا أن أمورًا مُستهجنة في الماضي نقرأها اليوم بكثير من الاستحسان، وأن أمورًا صفق لها الناس وهللوا تُثير لدينا الآن كمًّا كبيرًا من السُخرية والاستياء.

وبعد، فإن هذا الكتاب يرسم ملامح أمور وقضايا هامشية في التاريخ الحديث، مثل الإجرام والجنس والمزاج والفكاهة، بعيدًا عن الدراسة الأكاديمية الرصينة، وباختلاف شديد وواضح عن القص الأدبي وحبكاته واعتبارات الجاذبية والإثارة.

إنَّ الأمة التي لا تلتفت إلى الخلف، لا يمكنها أن تنظر إلى الأمام. ولا غد من دون ماضٍ، ولا مستقبل من دون حاضر.

وحسبي أن أؤكد بهذا الكتاب أن تاريخنا ليس مُصمتًا، وأنَّه يقبل المزيد والمزيد من الشك والإثبات والتفصيل، مؤمنًا بأنه ما ضاع جُهد استهدف معرفة، وما فَنيت كلمات أضافت عِلمًا، ومؤمنًا بأن اللـه هو خير المُكافئ، ونِعمَ المُعين.

مصطفى عبيد

يوليو ٢٠١٧

بوليس مصر... وطنيون وقتلة

«لقد عذَّب الملازم سليم زكي مواطنيه تسع ساعات متوالية، وحشر النساء مع الرجال وأراهم هو وجنوده كل قبيح»
من المنشورات السرية لثورة ١٩١٩

أبونا الذي في المباحث ـ بتعبير المُبدع اليقظ أمل دُنقل ـ مصري حتى النُخاع. فيه طيبة ووطنية وخير وشرور. ليس رجال البوليس المصري حفنة من الملائكة ولا هم ثُلة من القُساة والجلادين، هُم بشر كالبشر، بعضهم طيب ووطني ومُقاتل ينبغي الانحناء أمام تضحياته، والبعض الآخر سادي مُتجبر، يخدم السُلطة أيا كانت وفي سبيلها يفعل كثير من المُنكرات.
الشرطة المصرية لها تاريخ رمادي لا هو أبيض ولا أسود. أفرادها مثلنا أحسنوا وأساءوا، بعضهم كانوا علامات بارزة في الإخلاص وحُب الوطن والفدائية، والبعض الآخر كانوا قتلة ومُجرمين وساموا الناس ظُلمًا وقهرًا.
ومُنذ عرفت مصر الشرطة بشكلها الحديثة سنة ١٨٧٩ ميلاديا، ثُم تأسست بعد ذلك نظارة (وزارة) الداخلية سنة ١٩٠٠، وماكينة الأمن تُفرخ كُل يوم الأخيار والأشرار على السواء، والقراءة السريعة لتاريخ الشرطة المصرية اعتمادا على الصُحف والمجلات القديمة ترسم لنا ملامح كثير من الوطنيين الأكفاء، كما تكشف لنا أيضا حكايات كثير من القتلة والسفلة والجلادين وعبيد الأوامر، بصرف النظر عن مدى أخلاقية تلك الأوامر.
وهكذا فإن موقف المُجتمع من الشرطة كان مُتذبذبًا، ففي أوقات كان الناس يرون الشرطة وسائل أمن واستقرار وخير، وفي أوقات أخرى كانوا يرونها أداة قمع وقهر، وقد عكست السينما المصرية ذلك التوجه في أفلام عديدة، فظهرت النماذج الإيجابية في أفلام مثل «الرجل الثاني» و«النمر والأنثى» و«المشبوه» و«أدرينالين» وغيرها، بينما ظهرت النماذج السلبية في أفلام مثل «زوجة رجل مُهم» و«تيتو».

العقل المُدبر

في ثورة ١٩١٩ مثلاً كانت الشرطة ورجالها مثالاً لتقديم كلا النموذجين على السواء، الوطنيين وخدم السُلطة، الأبطال والخونة، الشرفاء والسفهاء. ولا نريد أن ننسى أن عبد الرحمن بك فهمي البطل الحقيقي للثورة كان ضابط شرطة سابق، واستفاد من تنقله بين كثير من المُدن في اكتساب خبرات التعامل مع مختلف طبقات المجتمع، واستغل ذلك في إنشاء طبقات للجهاز السري لثورة ١٩١٩.
إن الأجيال الحديثة لا تكاد تعرف أي أبطال آخرين لثورة ١٩١٩ سوى سعد باشا زغلول، والثابت فعليًا أن سعد قُبض عليه في ٨ مارس ١٩١٩ ولم يعرف شيئًا عن اندلاع الثورة إلا فيما بعد، لأن الذي أطلق شرارتها هو الضابط المحنّك عبد الرحمن فهمي، وكان قد أعد خطة استباقية في حال القبض على سعد ونفيه، تضمنت تشكيل خلايا عنقودية كُل منها منفصلة عن الأخرى، وتضطلع وحدها بتنفيذ مهمة من المهمات، بدءا من قتل الجنود والموظفين البريطانيين، وحتى إرهاب الساسة المصريين المتعاونين مع الاحتلال، فضلا عن تنظيم المظاهرات والإضرابات وتوزيع المنشورات.
والمُذهل في قصة عبد الرحمن فهمي أنه ظل شهورًا طويلة يتبادل مع سعد باشا التعليمات المكتوبة بالحبر السري، فوق رسائل يتم تبادلها بشكل رسمي، ويُنفذها ويشتري السلاح والقنابل ويقدمها للجماعات الفدائية،

ويرعى أسر المقبوض عليهم، وكل ذلك من دون أن ينكشف أمره، ولم يسقط الرجل إلا بعد تنفيذ عشرات العمليات، ليدخل السجن دون إثبات تهمة الإرهاب عليه، ثُم يخرج بعد ذلك لينخرط في دعم ومساندة الحركات العمالية، ثُم يطويه بعد ذلك سجل النسيان.
والمزعج أن هذا الرجل الذي استهدف بالقتل عشرات الجنود والضباط الإنجليز خلال أحداث ما بعد الثورة، من خلال عمليات تقوم بها خلاياه، لم يتول بعد وصول حزب الوفد إلى الحُكم سنة ١٩٢٤ أي مناصب وزارية، والمؤسف أيضا أن نضال الرجل تم تجاهله، فلم يُذكر كواحد من أبطال الثورة، ولم يُعرف دوره إلا في منتصف الستينات من القرن العشرين، عندما نشر الكاتب الصحفي مصطفى أمين سلسلة تحقيقات عن ثورة ١٩١٩، والتي جمعت بعد ذلك في كتاب حمل عنوان «الكتاب الممنوع» وصدر في التسعينات.

شهيد أسيوط

ويمكن القول إنه من بين أشهر الشخصيات البارزة التي كان لها حضورها الطاغي، في أيام الثورة الشهيد محمد كامل مأمور بندر أسيوط. وقصة هذا الرجل ترد بالتفصيل في كتاب «كان وأخواتها» للكاتب جمال بدوي، إذ يقول إنه عندما اندلعت الثورة صاخبة مُزلزلة، فإن كثيرًا من أهالي الصعيد قاموا بالفتك بجنود الاحتلال البريطاني، ووفقًا للمصادر التي تناولت الثورة كان أهالي مدينة أسيوط يُجبرون القطارات على التوقف بالقوة، ليتم القبض على كُل إنجليزي وإعدامه على الفور، وهو ما أحدث هيستيريا لدى قوات الاحتلال، وصلت بها إلى ضرب قُرى ومراكز أسيوط بالطيران. ولما سمع أهالي أسيوط بما فعله أهالي زفتى من إعلانهم الاستقلال، سارعوا إلى إعلان استقلال أسيوط، لكنهم عرفوا بعد قليل أن كتائب إنجليزية حاشدة قادمة في الطريق إلى أسيوط لوأد التمرد، فسارعوا بالذهاب إلى قسم بندر أسيوط، وطلبوا منه الحصول على السلاح، وفوجئوا بالبكباشي محمد كامل مأمور القسم يوّزع عليهم ما لديه من السلاح، مُعلنًا الجهاد ضد الاحتلال. لقد كانت تلك اللحظات حاسمة، إذ اختار البكباشي محمد كامل التمرد والمقاومة، وهو على يقين أن فعلته في نظر الإنجليز جُرم جزاؤه الموت، وبسرعة تمكن من تدريب المتطوعين على إطلاق الرصاص، بينما ظلت معه قوة من الجنود والخفراء قررت الاستشهاد دفاعًا عن استقلال البلاد.
وبالفعل احتشد الجنود والضباط المصريون مع لفيف من المتطوعين الشباب ليحملوا البنادق الحكومية، ويهاجموا مقر الحامية البريطانية في أسيوط، ودخلوا في معركة دامية معها، ونجحوا في أن يقتلوا عشرات الجنود الإنجليز. وعلى أثر ذلك ثارت ثائرة بريطانيا وجنودها، وتكثفت الضربات ضد ثوار أسيوط، وسقط العشرات شُهداء وجرحى، وبعد كرّ وفرّ نجحت قوات الاحتلال في القبض على الثوار وسارعت إلى مُحاكمتهم. وسريعا ومن خلال محكمة عسكرية إنجليزية تم الحُكم على البكباشي محمد كامل بالإعدام رميًا بالرصاص، وسعى عدد من الوطنيين والساسة المصريين إلى التدخل لدى

السلطات، ومنع تنفيذ الحكم واستبدال السجن به، مثلما جرى مع آخرين، لكنَّ الحاكم العسكري البريطاني أصرَّ إصرارًا شديدًا على إعدام البطل، وصدق على الحكم ليصبح واجب النفاذ. وفي يوم ١٠ يونيو من نفس العام يتم تنفيذ حُكم الإعدام في البكباشي محمد كامل الحكم رميًا بالرصاص وسط بندر أسيوط، وودعته دموع الناس لترفرف روحه في سماوات الخلود.

مصرع السفاح

وعن أسيوط أيضا، نقرأ بمجلة المصور في عددها الصادر في ١٢ مارس ١٩٦٩ بمناسبة مرور ٥٠ عامًا على ثورة ١٩١٩، كيف اشترك رجال البوليس، من جميع الأقسام، في الثورة المسلحة ضد الإنجليز. ومن الوقائع الطريفة التي يقصها شهود العيان، أن الإنجليز أرسلوا عددًا من الجنود الإضافيين إلى ديروط لمواجهة أعمال العنف، وأرسلت مديرية أمن أسيوط إشارة تليفونية إلى مراكز ونقاط البوليس داخل المديرية، تخبرها فيها أن القطار القادم في الغد يقل ثلاثة من كبار ضباط الإنجليز، على رأسهم القائمقام بوب، الذي كانوا يطلقون عليه لقب «السفاح» لقسوته الشديدة في التعامل مع المظاهرات، والتقط الإشارة اليوزباشي أبو المجد الناظر نائب مأمور مركز ديروط، ومصطفى حلمى ملاحظ شرطة نقطة دير مواس، وبدلاً من تشديد الحراسة على محطة القطار ذهب الشرطيان إلى الثوار، وأخبروهم بأن الضباط الإنجليز في طريقهم إلى المدينة، وقالوا لهم إنه من العار أن يصل هؤلاء الضباط إلى القاهرة أحياء، وبالفعل اندفع أهالي ديروط داخل عربات القطار حاملين عصيًا وسكاكين وفؤوسًا، وحاول الضابط الإنجليزي الفرار لكنَّ ضربات الغضب تلقفته، وخرَّ القائمقام بوب صريعًا، ليُكبر الثوار في إباء.

وفيما بعد حُكم على عدد كبير من ضباط شرطة أسيوط والمنيا بأحكام عديدة، تراوحت بين الإعدام والسجن والطرد من الخدمة، بسبب مشاركتهم المصريين في أعمال العنف، وكان نصيب الشرطيين السجن.

شهيد القنابل الوطنية

شهيد آخر يرد ذكره في عدة مصادر تناولت العمل السري خلال ثورة ١٩١٩، هو الضابط مصطفى حمدي، والذي قُبض عليه سنة ١٩١٦ لاشتراكه في خلية سرية لمقاومة الاحتلال، وأوصت السلطات بإبعاده عن البوليس، وبالفعل أجبر على ترك الخدمة ليؤسس واحدة من التنظيمات السرية الخطيرة لقتل واستهداف جنود الاحتلال خلال ثورة ١٩١٩، ومما يُنسب للرجل ابتكار وسائل تفجير حديثة، وتصنيع كُرات من الحديد مثقوبة من الناحيتين يتم استخدامها في قتل الجنود البريطانيين، بمجرد إلقائها على رؤوسهم. ومما يحكي عن الرجل في ملحق مجلة المصوّر، الصادر احتفالا بمرور ٥٠ سنة على ثورة ١٩١٩، أن مُصطفى حمدي تولى تدريب أفراد الجهاز السري لثورة ١٩١٩، وكان ممن تلقوا التدريبات المباشرة أحمد ماهر ومحمود فهمي النقراشي وعبد الرحمن فهمي، وقت انخراطهم في العمل السري ضد الاحتلال، وقد كان الضابط يقوم بتسليمهم قنابل مُصنعة

لتُستخدم في إرهاب جنود الاحتلال والمستخدمين الإنجليز في مصر، خلال أحداث الثورة.
ويشاء القدر أن يلتقي الضابط مُصطفى حمدي بأحمد ماهر في الصحراء لتجربة قُنبلة جديدة، وتنفجر القنبلة بالخطأ في وجه الضابط ليلقى ربه، ويقوم أحمد ماهر بدفنه في الصحراء ثُم يذهب إلى والدته ويخبرها بأن ابنها سافر فجأة إلى تركيا، بسبب تضييق السلطات البريطانية عليه، ويقوم الجهاز السري للثورة كل شهر بإرسال مبلغ مالي ثابت إلى والدته، ويُكشف الأمر بعد سقوط قتلة السير لي ستاك سردار الجيش البريطاني في السودان، على يد خلية سرية يقودها محام شهير اسمه شفيق منصور، ويعترف شفيق منصور بأن صانع القنابل السري مات منذ سنوات ودُفن في الصحراء، دون أن يعرف أحد من أهله شيئا.

تضليل إنجرام باشا

ويروي الكاتب صبري أبو المجد، في حلقات صحفية نشرتها مجلة المصور في ١ مارس سنة ١٩٦٩، شهادات لبعض ضباط البوليس الذين شاركوا في أعمال الثورة، ومن هؤلاء الضابط محمود عبد الرحمن الذي وصل إلى وظيفة مدير مديرية. ويحكي الكاتب كيف شارك كثير من رجال البوليس في أعمال المقاومة السرية، وكان محمود عبد الرحمن كثيرًا ما يضلل إنجرام باشا قائد البوليس الإنجليزي، ويدس عليه معلومات خاطئة، ففي إحدى المرات هاجم القائد الإنجليزي منطقة كان يسكن فيها بعض الفدائيين، ولجأ محمود عبد الرحمن إلى إخفاء المطلوبين في الاستراحة التي يقيم فيها إنجرام باشا نفسه، ثم يروي قصة اتهامه بنسف كوبري كفر الزيات لعرقلة تحركات القوات البريطانية، ونقله إلى سجن الحضرة بالإسكندرية حيث حكم عليه بالسجن سبع سنوات، وفي السجن فوجئ بأن المأمور ونائبه من الفدائيين، فكان وسيط اتصال بينه وبين فدائيي الخارج.

قتلة وخونة

والواقع أنه كما كان هناك أبطال وشهداء من رجال البوليس، فقد كان هُناك خونة وقتلة فضلوا العمل في خدمة المحتل الأجنبي خلال ثورة الشعب المصري. ففي ثورة ١٩١٩ يحكي شهود الثورة لمجلة المصور، في احتفالها بمرور ٥٠ عاما على ثورة ١٩١٩، عن البكباشي محمد شاهين، الذي أطلق عليه اسم «سفاح المتظاهرين» لكثرة ما قتل بالرصاص من المتظاهرين المصريين.
وكان هذا الضابط يُبدي فرحا شديدا حال سقوط شهداء مصريين برصاص البوليس والجنود البريطانيين، وقد اعتبره الطلبة عدوهم الأول، لأنه كان إذا قبض على طالب من المتظاهرين يقوم بربطه من يديه بحبل في سرج جواده، ثُم يجره خلفه حتى يتهشم رأسه ويموت.
وكان «شاهين» يتفنن في تعذيب المصريين للاعتراف على أي عنصر يساعد الثوار أو يقاوم الاحتلال، لذافقد ترصده بعض الوطنيين مطالبين برأسه، لكنّه

نجح في الهروب والتخفي لعدة سنوات انقطع بعدها ذكره.

منشور ضد سليم زكي

والمثير أن الباحث الكبير الدكتور رفعت السعيد، عثر على وثائق نادرة حول ثورة ١٩١٩ نشرها في سبتمبر ٢٠١٤، تضمنت بيانات لثورة ١٩١٩، كان من بينها بيان عن الخونة جاء فيه اسم محمد شاهين، إذ قال «من هؤلاء اسم ذلك النذل الجبان البكباشي محمد شاهين بالمنيا، الذي قتل بيده ثلاثة وعشرين من الأنفس المصرية، للقضاء على الحركة المصرية هنالك، ولخدمة الإنجليز في استعادة النظام، وتضم أيضا ذلك اللص الملازم أول سليم زكي بقسم الموسكي، الذي أهان مواطنيه إهانات كبرى في تفتيش المطرية، وعذبهم تسع ساعات متوالية، وحشر الرجال والنساء في صعيد واحد، وأفسح الطريق لارتكاب الجند كل قبيح ومحرم».

والمثير في الأمر أن سليم زكي سيستمر معنا عدوًا للوطنيين وخادمًا للاحتلال البريطاني، ومشاركًا في تأسيس البوليس السياسي، قبل أن يصبح حكمدارا للعاصمة، والغريب أيضا أن سليم زكي كان على علاقة صداقة قوية بالشيخ حسن البنا، مؤسس جماعة الإخوان المسلمين. وتنقل لنا الصحف صورة للشيخ البنا يطوف مع سليم زكي سنة ١٩٤٦ ليمرا على مظاهرات الطلبة لتهدئتهم. ومن عجائب القدر أن نهاية سليم زكي جاءت على يد طالب من أعضاء جماعة الإخوان في ديسمبر سنة ١٩٤٨، إذ ألقى الطالب قُنبلة على سيارة سليم زكي، خلال مرورها إلى جوار مظاهرة، لقي حتفه على أثرها.

ولا شك أن البوليس السياسي ضم أسماء عديدة من المُجرمين الذين تلطخت أيديهم بالدماء، وثبت اقترافهم لعنف شديد تجاه خصوم السُلطة، كان من أشهرهم محمود عبد المجيد ومحمد الجزار ومحمد وصفى، الذين حوكموا فيما بعد بتهمة اغتيال الشيخ حسن البنا، في فبراير ١٩٤٩ أمام مقر جمعية الشبان المسلمين، وقيل إن بعض هؤلاء كانوا أعضاء في تنظيم سري تابع للملك فاروق، على غرار تنظيم الحرس الحديدي.

ويرى بعض الباحثين أن تأسيس البوليس السياسي كان على يد الإنجليز أنفسهم زمن الاحتلال، لذا فإنهم كانوا دائما خصوما للوطنيين والفدائيين، وهو ما يشير إليه رُسل باشا حكمدار القاهرة الإنجليزي، في مذكراته حول خدمته في مصر.

نماذج فدائية

وفي لحظات أخرى من التاريخ، قدمت الشرطة المصرية نماذج مُشرفة ساهمت في التضحية من أجل الوطن، كان أبرزها أولئك الضباط الذين شاركوا في معركة الإسماعيلية في ٢٥ يناير سنة ١٩٥٢. في ذلك اليوم وقف ضباط شرطة الإسماعيلية موقفًا بطوليًا من إنذار قوات الاحتلال للمحافظة بضرورة تسليم الأسلحة، بسبب اتهامات وجهت لبعض أفراد الشرطة بمشاركتهم في تهريب الأسلحة إلى الفدائيين بمنطقة قناة

السويس.
إنَّنا نعرف جميعا قصة المعركة التي جرت يوم ٢٥ يناير سنة ١٩٥٢ ثم اتخذ اليوم بعد ذلك عيدًا للشرطة، ففي ذلك الوقت كانت مصر قد أعلنت إلغاء معاهدة الصداقة مع بريطانيا، لعدم التزامها بوعد الاستقلال، وأعلنت حكومة الوفد برئاسة مصطفى باشا النحاس حركة الكفاح المسلح ضد الإنجليز في مدن القناة، وقامت وزارة الداخلية بدور عظيم في تهريب الأسلحة للفدائيين.
وقتها قررت القوات البريطانية الرد بقوة لتأكيد سيطرتها على مصر، وقدم الجنرال إكسهام قائد القوات البريطانية في الإسماعيلية إنذارًا مكتوبًا إلى ضابط الاتصال المصري شريف العبد، طلب فيه أن تسلم الشرطة المصرية بالمحافظة كامل أسلحتها إلى القوات البريطانية وترحل. وسادت حالة من الغضب بين قيادات الشرطة بالمدينة، واتصل مصطفى رفعت مساعد وزير الداخلية، بفؤاد سراج الدين وزير الداخلية في ذلك الوقت، ليخبره بالانذار، وقد أراد «سراج الدين» معرفة موقف ضباط الشرطة بالمدينة، فقال له مصطفى رفعت إنَّهم يعتبرون الإنذار إهدارا لكرامة مصر ويرفضونه، فقال له وزير الداخلية: إذن عليكم المقاومة حتى آخر رصاصة. وفوجئت القوات البريطانية المحاصرة للمدينة برصاص الشرطة المصرية لترد الإهانة، واشتعلت المعركة الدامية وغير المتكافئة بين رجال شرطة مصريين بأسلحة خفيفة، وكتائب من الجيش البريطاني، ليتساقط الشهداء فداء للوطن وكرامته.
ومن حكايات الشرف في ذلك اليوم، حكاية الضابط فؤاد الدالي، الذي كان برتبة ملازم، والذي قاتل ببسالة إلى جوار مصطفى رفعت، وعندما حوصرت مجموعة من الفدائيين داخل مستوصف الإسماعيلية اندفع «الدالي» ليحاول تحريرهم، فأصابته شظية قنبلة في رأسه وظن زملاؤه أنه مات. وخرج «الدالي» إلى الأطباء يبحث عمن يستخرج من رأسه الشظية، وسافر إلى أوروبا، وتعجب كبار الجراحين كيف اخترقت تلك الشظية أعماق دماغه ولم يفقد أيا من حواسه، وانتهوا إلى استحالة استخراج الشظية. وعاش «الدالي» سنوات طويلة يخدم في قطاعات مختلفة داخل الشرطة، وهو يحمل شهادة بطولته في رأسه، والطريف أنه اختير في السبعينات مديرا لأمن الإسماعيلية ثم الفيوم، قبل أن يخرج إلى المعاش. ويرحل «الدالي» آمنا مطمئنا بعد أن استضاف الشظايا ثلاثة عقود في رأسه.

ضابط إرهابي

على الجانب الآخر، نجد أن هناك بعض ضباط الشرطة الذين انحرف بهم المسار فصاروا مُجرمين وقتلة في أزمان تالية، منهم مثلا ضابط يُدعى طارق عبد العليم، وهو ممن ضلوا الطريق، وتركوا البوليس، واعتنقوا بعد ذلك فكر التكفير والجهاد وانضموا إلى جماعة «المسلمون» التي أنشاها المتطرف شكري مصطفى، وعرفت أمنيا بجماعة «التكفير والهجرة»، وقد خطط ذلك الضابط لاختطاف الشيخ الذهبي وزير الأوقاف، لمطالبة الحكومة بالإفراج عن أعضائها مقابل الإفراج عنه، لكن يبدو أن اقتراب الشرطة من الوصول إلى

الخاطفين دفع الضابط الضال إلى إطلاق الرصاص على رأس الشيخ البريء وقتله، وفيما بعد حوكم الضابط مع باقي المتهمين، وحكم عليه بالإعدام مع شكري مُصطفى. وقد كان هناك بعض الفلتات في انضمام عدد من رجال البوليس إلى جماعات متطرفة أو عصابات إجرامية، لكنها بكل تأكيد لم تكن إلا حالات شاذة تكسر القاعدة.
وهكذا رأينا في البوليس المصري عجائب البشر.

مجرمون خالدون

«يا بهية وخبريني يا بوي.. ع اللي جتل ياسين»
من موال شعبي شهير

لصوص ولكن زُعماء. مجرمون وقتلة وقُطاع طرق أحبهم العامة وخلدوهم. بعضهم تحولوا إلى أساطير، ونُسجت حولهم القصص والحكايات، والبعض الآخر صاروا أبطالا شعبيين رغم إجرامهم، وتم تأليف المواويل الشعبية عنهم. ويبدو أن ولع المصريين بالخوارق هو السبب، فالأمور الطبيعية غالبا لا تلفت الانتباه، ومَن يطالع القصص الشعبي يُدهَش كيف أحبَّ الناس مُجرمين ونشالين ومُحتالين وبلطجية وقتلة مستأجَرين.

القصص عديدة والأمثلة متنوعة، ونظرات سريعة عبر التاريخ تؤكد الصفة الغريبة لدى المصريين، بأنّهم يُخلدون القتلة ويؤسطرونهم.

الحلبي.. القاتل المأجور

إن نظرة مٌستفيضة في كتاب عبد الرحمن الجبرتي «عجائب الآثار في التراجم والأخبار» تصدمنا في رجل نعتبره بطلاً عظيما، ونُطلق اسمه على أحد الشوارع الرئيسية في حي المنيل بالقاهرة، وهو سليمان الحلبي. لقد قدمت مناهج التاريخ في المدارس المصرية سليمان باعتباره بطلاً مغوارًا، قدم تضحية عظيمة بقتله لقائد الحملة الفرنسية. أما عبد الرحمن الجبرتي فيقول لنا صراحة إن سليمان الحلبي قاتل مأجور، يُكرى ليقتل. وعندما يصف «الحلبي» يقول عنه إنه شخص من «سفلة السفلة، أهوج، وأحمق، ومتدنس بالخطايا». ويحكي لنا الجبرتي حادثة الاغتيال ذاكرًا أن ساري عسكر «كليبر» كان يسير مع كبير المهندسين الفرنسيين في بستان داره بالأزبكية، عندما دخل إليه شاب عربي قاصدا إليه. ويبدو أن ذلك كان مُتاحا في ظل سياسة الفرنسيين للتقرب من المصريين، لذا فقد تركه كليبر يقترب منه معتقدا أنه صاحب حاجة وأن عليه قضاءها، ومد القاتل يده اليسري كأنه يرغب في مصافحة ساري عسكر، وبالفعل صافحه القائد الفرنسي، الذي لم يعرف أنه سيقبض على يده ويطعنه بيده الأخرى بخنجر صغير. جاءت الطعنة الأولى مفاجئة، لكن الثانية، والثالثة، ثم الرابعة لم تكن كذلك، وسمع الحُراس صرخة مكتومة لكليبر، وحاول كبير المهندسين الإمساك بسليمان، لكنَّه تلقى طعنة جعلته لا يكمل محاولته.

وسريعًا جرى سليمان إلى السور وقفز منه، والحرس يجرون خلفه، واختفى تماما عن الأنظار، لكنهم لم يملوا البحث عنه، وفتش الفرنسيون جميع المنازل المجاورة، وبالفعل وجدوه في بستان مجاور مختبئا خلف حائط منهدم.

ويذكر الجبرتي أنهم «وجدوه شاميًا فأحضروه، وسألوه عن اسمه وعمره وبلده فوجدوه حلبيًا اسمه سليمان، فسألوه عن محل مأواه فأخبرهم أنه يأوي ويبيت في الجامع الأزهر، فسألوه عن معارفه وهل أخبر أحدا بعمله، وكم له في مصر من الأيام والشهور، وعاقبوه حتى أخبرهم بحقيقة الحال».

ودلَّ «سليمان» على أربعة قال إنه أخبرهم باعتزامه قتل ساري عسكر، لكن الفرنسيين أطلقوا سراح واحد منهم تأكدوا أنه لم يعلم بالأمر، أما الباقين فقد قتلوا مع سليمان الذي قتل بحرق يده اليمنى ثم وضعه على الخازوق.

الغريب فيما حكاه الجبرتي انبهاره بعقد الفرنسيين محاكمة للقاتل وعدم

التعجيل بقتله فور القبض عليه، وترتيب من يدافع عنه، وسؤالهم له إن كان مذنبا أما لا، وهو ما علّق عليه المؤرخ الكبير قائلا: «بخلاف ما رأيناه بعد ذلك من أفعال أوباش العساكر الذين يدّعون الإسلام ويزعمون أنهم مجاهدون».
وتتحدث بعض الأدبيات المعاصرة لعهد محمد على عن بطل شعبي مغامر وذكي يُسمى «علي الزيبق»، مُتخصص في سرقة بكوات وأمراء المماليك ومشاغباتهم، وقد نُسجت حوله حكايات عديدة ونسبت إليه خوارق وبطولات، لكنَّه في واقع الأمر شخصية وهمية لا وجود لها، وكل الحكاية أن أحد الأدباء ألف كتابًا عن مغامرات «علي الزيبق» خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وذاع صيته بين المجتمع المصري، حتى تحولت تلك البطولات والحكايات إلى مواويل تُغنى على الربابة.

اللي قتل ياسين

وإذا كان لنا أن نتفهم الأسباب والدوافع التي دفعت البعض إلى تعظيم سليمان الحلبي، من خلال مناهج التاريخ المدرسي، فإنَّه ليس معروفًا كيف زورت العقلية المصرية شخصيات أخرى لم تقدم في التاريخ المدرسي، وحولتهم من قتلة ومجرمين إلى أبطال، ومن هؤلاء الشقي الخطير «ياسين» محبوب «بهية» الذي نُسج حوله الموال الشهير «يا بهية وخبريني يا بوي... على اللي قتل ياسين». لقد قدّم الفن المصري الرجل باعتباره وطنيا عظيما يقاتل الاحتلال، بينما يروي لنا اللواء محمد صالح حرب، وزير الحربية الأسبق وشقيق طلعت حرب، في مذكراته، القصة الحقيقية للمجرم ياسين الذي قتله بنفسه سنة ١٩٠٥.
تقول مذكرات الرجل إنه بعد تخرجه في الكلية الحربية سنة ١٩٠٣ وخدمته ضمن سلاح خفر السواحل، عمل بمنطقة صحراوية بالصعيد، وهُناك عرف «ياسين». إنه يحكي قائلاً: «كان ياسين أعنف شقي وأجرأ مجرم مشى على أرض مصر في زمنه. اتخذ الرجل القتل حرفة، فكان يقتل ليلهو ويلعب، ويقتل ليسلب وينهب، ويطرب كل الطرب عندما يسمع اسمه يتردد بين الناس في خوف وهلع. وكان يقول لأقاربه: لماذا لا أكون مثل أبي زيد الهلالي على الربابة؟ وقد روّع هذا الشيطان الرجيم بجرائمه مديريتي (أمن) قنا وأسوان، وأصبح لا حديث للناس إلا عما يتوجسونه من بلائه وشره المستطير».
ويضيف أن «الناس امتنعوا عن الخروج من منازلهم ليلا في بعض مدن وقرى المديريتين، وقد ضاقت وزارة الداخلية ذرعًا بهذا الشقي، وشددت النكير على المديرين القائمين على الأمن في قنا وأسوان، وأمدتهم بقوات إضافية، وصاروا يجردون عليه قوات من الجنود والخفراء بقيادة ضباط ليتعقبوه دون نجاح، فكان يخاتل القوات ويقتل منها، وينتهي الأمر بمحاكمة قائد القوة، ولا تنقطع سيرته ولا تهدأ سريرته، ورأت وزارة الداخلية أن تكلف عمدة قبيلة هذا الشقي، وهو علي بك، وهددته بأن تجرده من رتبته إذا لم يأت بهذا الشقي حيًا أو ميتًا. وظل العمدة يطارده برجال من قبيلته، حتى عثر عليه في أحد المخابئ، وطلب منه أن يستسلم، فقال للعمدة: يا سيدي أنت عمدتنا

ورئيسنا ويعز عليّ أن أؤذيك، وأنت تعلم أنَّي محكوم عليّ بالإعدام، ولن ترحمني الحكومة إذا قبضت عليّ، وأنا لن أسلم نفسي حيًا أبدًا، ولن أموت رخيصًا، فخير لك أن تتركني، وبالفعل لم يسع العمدة إلا أن يتركه وشأنه، وعندما جاء مفتش الداخلية قال له العمدة: خذوا رتبكم ونياشينكم إذا شئتم، ولست أقوى من الحكومة حتى تكلفوني بما لا أطيق، وأنا علمت أن الشقي في جهة كذا فاقبضوا عليه أو اقتلوه».

وبالمصادفة وقع الشقي ياسين في طريق اللواء صالح حرب، الذي يحكي: «كُنا في الطريق صوب حلفا عندما جاءني الأونباشي وقال لي: يا أفندم أنا شفت عربيا نائما على بطنه وفي يده بندقية في المغارة هناك، وأشار إلى مكانها، وقال الدليل المصاحب لنا: وإحنا مالنا. وربما أدرك أن ذلك الشقي هو ياسين. لكنني وجدت نفسي مندفعًا لأرى هذا الرجل، وجن جنون الدليل، وحاول أن يثنيني عن ذلك فأبيت وعدت إلى المغارة، وسمعنا الراقد على بطنه وفي يده بندقيته، وأطلق طلقات سريعة علينا فأدركت أن الرجل هو الشقي ياسين، وعدت فوق التبة وأخذنا نطلق عليه النار، ثم أحضرت حزمة بوص وربطتها بحبل وأشعلت فيها النار وأدليتها من فوق الكهف، فإذا به يطلق علينا عدة طلقات حتى أصيب عسكري معي، فأصدرت أوامري بإطلاق النار عليه، وبالفعل أصابته إحداها في قلبه».

ودخل صالح حرب إلى الكهف ليجد جميع وسائل الحياة مُتاحة للمجرم، ويجد زوجته تولول، ثم عندما علمت بموته اندفعت تزغرد وتقول «بركة لي.. بركة لي»، وعندما أبلغ مأمور مركز المحاميد بالخبر لم يصدق حتى رأى جثمانه في جوال، وقال «لقد تخلصنا من شيطان رجيم». الغريب في الأمر ما يحكيه «حرب» بعد ذلك من أنَّه لم تمض أيام على قتل ياسين، حتى نظَّم أحد أبناء الصعيد أغنية لم تلبث أن رددها الشعب كله من أقصى الصعيد إلى شمال الدلتا، تقول «يا بهية، وخبريني ع اللي قتل ياسين».

وعلى أثر هذا الموال الشعبي ألّف الشاعر الراحل نجيب سرور مسرحية خيالية، لتحكي قصة الرجل باعتباره بطلاً شعبيًا عظيمًا بعنوان «ياسين وبهية»، ثم تطور الأمر ليسمي البعض مصر باسم بهية، ويتساءلون في حيرة «مين اللي قتل بهية؟ مين اللي قتل بهية؟».

البلطجي الشرقاوي

وفي القصص الشعبي تبرز حكايات أدهم الشرقاوي، باعتباره بطلاً وطنيًا حارب الإنجليز وقاومهم، وهو ما دفع إعلام نظام يوليو إلى إطلاق عدة أعمال فنية للتغني ببطولاته، رغم أنه لم يكن سوى لص مُحترف وقاطع طريق شهير. وقد خلدت المواويل الشعبية الرجل، حتى صار مَن يحاول تقديم صورة حقيقية لأفعاله ناكرًا للجميل وطاعنًا في الأبطال الوطنيين. وغنى عبد الحليم حافظ موالاً شهيرًا عنه قال فيه:

«منين أجيب ناس لمعناة الكلام يتلوه.. الإسم لادهم لكن نأبه شرقاوي»، وهكذا صوروه كأنه بطل شهم ووطني، يقاتل من أجل الفقراء ويحارب الإنجليز والخونة. والغريب في الأمر أن وثائق وزارة الداخلية المصرية وما نشرته عن

اللص، بمتحف الشرطة، يشير إلى اختلاف جذري في جميع التفاصيل، بدءا من عدم انتماء أدهم للشرقية، وحتى حقيقة سجنه بتهمة مقاومة الإنجليز.
إن الوثائق الرسمية تشير إلى أن أدهم الشرقاوي من مواليد مركز إيتاي البارود سنة ١٨٩٨، وليس الشرقية كما هو شائع، وتحديدا قرية زبيدة، وأنه كان شخصا قوي البنية، والتحق بإحدى مدارس كفر الزيات، وأن مقتل عمه دفعه إلى الثأر ودخول السجن مبكرًا، بعد أن قتل قاتل عمه. وفي زمن الانفلات الأمني والاضطرابات، خلال أحداث ثورة ١٩١٩، استغل أدهم الفوضى القائمة وهرب من الليمان، وكوّن عصابة لقطع طريق والسرقة بالإكراه، ثم عمل كقاتل مأجور مقابل المال، حتى حاصرته قوات الأمن وقضت عليه.
وتكشف لنا نسخة من مجلة «اللطائف» المصورة في أكتوبر سنة ١٩٢١، نشرها مؤخرًا الزميل الكاتب الصحفي ماهر حسن في جريدة المصري اليوم، صورة أدهم الشرقاوي التي نشرت مع خبر مقتله تحت عنوان «المجرم الأكبر الشقي الطاغية أدهم الشرقاوي، بعد أن طارده رجال الضبط والبوليس واصطادوه، فأراحوا البلد من شره وجرائمه».
وذكرت «اللطائف» أن أدهم ارتكب حادثة قتل وهو في سن التاسعة عشرة، وكان عمه عبد المجيد بك الشرقاوي، عمدة قرية زبيدة، أحد شهود الإثبات، ثم هرب من السجن وكون عصابة تخصصت في السرقة والقتل، ومن بين عملياتها قتل الشيخ حسن السيوي، من أعيان كفر خليفة، وكان يسطو على التجار على قارعة الطريق نهارا، ويسلب محافظهم وما يحملون.
وأخيرًا أرسل ملاحظ بوليس التوفيقية أحد الجاويشية، ويدعى محمد خليل، ومعه أونباشي سوداني وأحد الخفراء، فكمنوا له في غيط ذرة بزمام عزبة جلال، وكان أدهم الشرقاوي في حقل مجاور من حقول القطن يتأهب لتناول غدائه الذي جاءته به امرأة عجوز، وكان يخفر أحد الخفراء النظاميين. ولما أحس أدهم الشرقاوي بحركة داخل غيط الذرة المجاور أطلق عدة طلقات من بندقيته الماروز دفاعًا عن النفس، ولكن الجاويش محمد خليل أطلق عليه رصاصتين، فسقط قتيلا قبل أن يتناول شيئًا من طعامه.
وإذا كان عبد الحليم حافظ ومحمد رشدى قد غنى كل منهما موالاً عن «الشرقاوي» فإن عبد اللـه غيث قام ببطولة فيلم باسم «الشقي» سنة ١٩٦٤، ثم تم عمل مسلسلين تلفزيونيين بعد ذلك عن أدهم الشرقاوي في السنوات الأخيرة، وكلها اتفقت على كونه بطلاً من أبطال المقاومة الشعبية.

النصَّاب الظريف

وقد ساهم الفن في تعظيم وتبجيل محتال آخر هو حافظ نجيب، الذي أطلق عليه «النصاب الشهير»، وقد نشر زميلنا الباحث ممدوح الشيخ كتابًا عنه كشف فيه حقيقة بطل مسلسل «فارس بلا جواد» الذي قام ببطولته قبل سنوات الفنان محمد صبحي.
ويحكي ممدوح الشيخ في كتابه «اعترافات حافظ نجيب» كيف كان والده ضابطا بالجيش، ومتزوجا بابنة باشا تركي، وقد تعارك يوما معه فطُرد، وتربى

حافظ مع أسرة الجنايني، إلا أن جدّته عطفت عليه بعد وفاة والدته، وأنفقت عليه وعلمته الإيتيكيت، ثم استقل ليعمل بالجيش الفرنسي المحتل للجزائر، ثم عاد إلى مصر ليعمل في البورصة، ثم احتال في زي راهب وتقرّب من الحركة الوطنية، لكن محمد فريد أبعده لعدم ثقته فيه. وقد عرف عنه تزوير المؤلفات بكتابة روايات ومسرحيات بأسماء أدباء عالميين ونشرها بالمكتبات، حتى إن البعض يشكك في قصة ما رواه في مذكراته التي أعاد نشرها ممدوح الشيخ.

خُط الصعيد

ومن القتلة الأبطال رجل صعيدي أطلق عليه «الخُط» وشاعت حوله قصص وأساطير عديدة، حتى صار مضرب الأمثال في أسيوط.

وتُحدِّثنا مجلة «الاثنين» في نوفمبر سنة ١٩٥٠ عن جانب من قصة الخُط، فتقول «مات الخُط فاهتزت أسيوط بأسرها من نشوة الفرح والسرور، وكأنَّما صحا القوم هناك من كابوس مزعج أقض المضاجع وحبس الأنفاس، وألقى في النفوس الرعب والهلع، فراحت الأفواه التي لبثت مطبقة في حياة الخُط تلغط بأبيات الشعر وبيانات العتو والإجرام التي نشرها السفاك على ذلك البلد الآمن، فلقل أمنه وقوض طمأنينته».

ثمَّ تحكي المجلة كيف كان رجال الشرطة في قرى منفلوط لا يجدون إجابة من الأهالي عن أسئلة بشأن جثث قتلى من الفلاحين والمزارعين، كل يوم، حتى إنه في مرة من المرات دخلت عصابة الخط إلى منزل أحد الفلاحين، فصفعوه وركلوه وبصقوا في وجهه ثم أطلقوا النار على زوجته، واخترقوا شوارع القرية في عزم وثبات، وأهل القرية يراقبونهم والرعب يجثم عليهم. ولما مات الخُط حكى الناس ما جرى، فقبل أسبوع كان زوج المجني عليها جالسا مع بعض جيرانه، وجاء على لسان أحدهم أن الخُط في النجوع المجاورة، فانبرى الزوج يرمي الخُط بالنذالة والجبن، وأخذته الحماسة فراح يؤكد للسامعين أن الخُط أجبن من أن يدافع عن امرأته لو هاجم بيته بضعة لصوص، ووصل الكلام إلى الخُط، وقرر الرد بشكل عملي. وفي يوم الجريمة طرق طارق باب الزوج، فأطل فوجد رجلاً فارع الطول عريض المنكبين يحمل على كتفه ما يشبه البندقية، وألقى الطارق السلام فردَّ عليه الزوجان، ثم قال الطارق للزوج «إنت لازم مش عارفني» فرد الزوج «ماحصليش الشرف» فضحك الطارق وقال له: «دلوقتي حيحصل لك» ثُم أطلق رصاصته على زوجته قائلاً: «أنا الخُط» ثم خرج ورجاله في ثبات وهدوء يسيرون في القرية في إباء.

ولم يكُن الخُط سوى مجرم حقير مُنعدم الأخلاق والمبادئ، من مواليد أسيوط واسمه الحقيقي محمد منصور. وطبقا لما أوردته مجلة «الاثنين» فقد ولد في بدايات القرن العشرين، وصعد إلى الجبل ومعه عدد من المطاريد ليبدأ عمليات سطو مسلح على الأعيان وأصحاب الأراضي، ثم يتطور الأمر ليصبح قاتلاً أجيرًا. وقد شاع عنه تحديه للشرطة، وكتبت عنه مجلات وصحف الثلاثينات والأربعينات، ونقلت أساطير عديدة روجت عن شجاعته وقوته،

حتى قتله البوليس في مطاردة
سنة ١٩٤٧.

سفاح الإسكندرية

وفي حقبة الستينات من القرن الماضي، اشتهر سفاح خطير بتنفيذ عدة عمليات قتل وسطو مُسلح، اسمه محمود سليمان، وانشغلت الصحافة بسرد وقائع وحكايات ملفقة حول شهامة القاتل وبطولاته، وتركيزه على تصفية الأثرياء المُستغلين الذين كونوا ثرواتهم بطرق غير مشروعة، وهو ما لفت انتباه كاتبنا الفذ نجيب محفوظ، فنسج به شخصية سعيد مهران في رواية «اللص والكلاب» ليصوره كضحية لمجتمع قائم على المظاهر والغش والمتاجرة بالشعارات، وقد تم تقديمه للسينما بنفس الاسم، وقام بدور البطولة فيه الفنان شكري سرحان. وقد تعاطف كثيرون مع السفاح باعتباره ضحية مُجتمع مُشوه تحكمه المظاهر والمادية.
ويشير البعض إلى أن الطريقة التي نشرت بها واقعة تصفية محمود سليمان، كانت سببا في قانون تأميم الصحافة الذي أصدره عبد الناصر سنة ١٩٦١، إذ نشرت جريدة «الأخبار» في صدر صفحتها خبرا بعنوان «مصرع السفاح» وتحته خبر «عبد الناصر في باكستان»، وسقط الخط الفاصل بين العنوانين، فقرأ الناس العنوان الممتد «مصرع السفاح عبد الناصر في باكستان»، ما زاد من غضب الرئيس الأسبق على الصحافة، فقرر التعجيل بقانون السيطرة على جميع الصحف، وتحويل ملكيتها للدولة.

لصوص تائبون

ومن اللصوص الظرفاء، لص تاب بعد حياة حافلة بالعمليات والمغامرات المثيرة، وعرف إعلاميا باسم «اللص التائب» واسمه محمد راشد. وقد استضافت عشرات الفضائيات الرجل، ليحكي قصته التي نشرها عدة مرات في كتاب بعنوان «مذكرات اللص التائب» حكى فيها كيف سرق للمرة الأولى دواجن جارته وعمره ١٣ عامًا، ثم اتجه بعد ذلك لتتبع شقق المشاهير والأجانب، حتى إنه دخل في البداية شقة صوفي أبو طالب، رئيس مجلس الشعب الأسبق، وسرق منها جواهر ومصوغات، ثم تعددت سرقاته للشقق الفاخرة، حتى صار لديه شقة فخمة وسيارة حديثة. وظل «راشد» يعمل في ثقة وهدوء، حتى سقط في يد الشرطة وتلقى حكما بالحبس ثلاث سنوات، تعلم خلالها الصلاة وقرر التوبة، ثم عندما خرج ذهب إلى البنك وصرف كل مدخراته وأخذ مفاتيح سيارته وذهب إلى وزارة الداخلية، وأعلن تقديم كل ما يملكه للواء عبد الحليم موسى، وزير الداخلية في ذلك الوقت، لتتصرف فيه الدولة.

القوادون والغواني

«إنَّ الرقص المصري مبتذل وشنيع، سيما أن الراقصات المصريات من المومسات اللواتي لم يتخذن هذا الفن إلا لقضاء شهواتهن، وإيقاع الشبان الجهلاء في شباكهن»

جريدة الإخلاص في ١٧ يوليو ١٨٩٧

عرفت مصر الدعارة بمفهومها المعتاد مُنذ القدم، وتطورت المهنة على مدى العصور المختلفة، ووصلت إلى أوج تألقها بعد دخول الاحتلال البريطاني إلى مصر سنة ١٨٨٢، إذ تم تقنين أوضاع البغايا والغواني، ووضعت نُظم خاصة للكشف عليهن ولتحصيل الضرائب منهن، حتى تقرر إلغاء البغاء تمامًا سنة ١٩٥١، وعادت الدعارة مرة أخرى تنشط لكن بشكل سري.

وقد تناول أكثر من باحث في كُتب ودراسات عديدة قصة الدعارة في مصر، سواء بشكل أكاديمي مثل الدكتور عبد الوهاب بكر، وعماد هلال، وخالد فهمي، أو بشكل صحفي وقصصي مثل كثير من الروايات والموضوعات الصحفية، التي قدمت جانبًا واحدًا من الصورة الحقيقية للمهنة القائمة على بيع الأجساد.

وما يعنينا ـ بحثيًا ـ هو أن البغاء ولد بشكل علني خلال آواخر العهد الفاطمي، إذ انتشر الانحلال الأخلاقي المُصاحب للفقر وسوء الأحوال الاقتصادية، ثُم تحول الأمر إلى مهنة شبه رسمية خلال عهد المماليك، وصار للبغايا أماكن تجمع ونظم وقواعد خاصة، وواصلت المهنة ازدهارها زمن الحملة الفرنسية (١٧٩٨ـ١٨٠١) قبل أن تتطور طوال عهد محمد علي، حتى سنة ١٨٣٤ عندما صدر أمر بتحريم المهنة وجلد المخالفات من النساء وسجنهم، إلا أن ذلك لم يمنع النشاط الذي سرعان ما عاد إلى العلنية زمن الخديو إسماعيل، حتى أعلنت السلطات البريطانية اعتراف القانون رسميا بالبغاء.

وما نستعرضه هُنا هو حكايات متفرقة من عالم الغواني والقوادين، أو ما يطلق عليه البعض مُصطلح «المُجتمع السُفلي» نسبة إلى وصف عبد الرحمن الجبرتي لهُن بالفواحش والأسافل. وربما من الضروري أن نشير إلى أن عالم الغواني تماس واتصل كثيرًا بعالم «العوالم» أو الراقصات في مصر الحديثة، وهو ما مارسته كثير من الفتيات المحررات من العبودية بعد دخول الإنجليز إلى مصر، وحسبنا ما ينقله لنا الكاتب الكبير محمود عوض في كتابه «أفكار ضد الرصاص» من أن معظم الراقصات الشرقيات كُن من المومسات في نهايات القرن التاسع عشر الميلادي.

وطبقًا لكثير من الرحالة والمستشرقين، كانت مدينة القاهرة في ذلك الوقت تزخر بنساء عديدات احترفن بيع أجسادهن مقابل أموال، وقد تعددت الأوصاف التي أطلقت عليهن، وكان أشهرها «الغوازي» أو «الخواطي» أو «العواهر» أو «القحاب» (جمع قحبة). ورغم اتساع أنشطتهم وأنشطة العاملين معهن من الذكور في مهنة القوادة، اعتبرهم المجتمع المصري نماذج مُحتقرة لا تُقبل شهادتها، ولا تلقى احتراما أو اهتماما، حتى إن المصريين استعانوا بكلمة فارسية نقلت إليهم عبر العبيد المجلوبين إلى مصر، وهي كلمة «سارموزة» والتي تعنى «حذاء» ليطلقوه على كل امرأة تمتهن تلك المهنة، وفيما بعد تحرَّفت الكلمة لتصبح «شرموطة».

وطبقا لمقالات عبد اللـه النديم في مجلة «الأستاذ» فإن الربع الأخير من القرن التاسع عشر الميلادي شهد اتساعًا كبيرا لمهنة الدعارة، وتعددت وتنوعت أشكالها، وصارت لصيقة بالطبقة العليا كإحدى الملذات الأساسية

التي يمكن توفيرها بالمال. وينقل «النديم» حكايات عن شباب مُتهتك، أنهَّم كانوا يتنافسون في ارتياد المواخير والحانات وبيوت الزنى المُنتشرة خلال عهدي إسماعيل وتوفيق.

حكايات الغربي

وتتعدّد حكايات وقصص النماذج الشهيرة في هذا المجتمع، وربما يُعد علمًا رئيسيًا في هذا الشأن القواد إبراهيم الغربي، الذي كتب عنه كثيرون، ربما أشهرهم رُسل باشا حكمدار القاهرة، في مذكراته التي صدرت باللغة الإنجليزية قبل أكثر من سبعين عامًا، ولم تترجم إلى العربية حتى الآن. كذلك كان من بين مَن كتبوا عن الرجل الكاتب يحي حقي، وعبد الوهاب بكر، وياسر ثابت، وغيرهم. كما تم تقديم مسلسل للإذاعة المصرية عنه خلال ستينات القرن العشرين، بعنوان «شيطان الليل».

والثابت عن هذا الشخص أنه كان مُخنثًا، قدم إلى القاهرة من جنوب البلاد، وتحديدًا من مدينة كروسكو بأسوان، وكان والده واحدًا من أشهر تجار الرقيق في الشرق، وكانوا يلقبونه بالملك، وقد افتتح بيت دعارة في منطقة بولاق، ثمَّ ذاعت شهرته الآفاق، وتوسعت أنشطته حتى فتح عدة بيوت بعد ذلك في مناطق متفرقة من القاهرة، ومدَّ «الغربي» صلات وعلاقات قوية بقناصل أجانب ورجال شرطة، وعملت لديه عشرات النساء الخواطي، حتى تم القبض عليه سنة ١٩١٧ ومنعه من مزاولة العمل، حتى انتهاء الحرب العالمية الأولى إذ خرج مرة أخرى ليعود إلى نشاطه، ويتم تتويجه ملكًا على مملكة الفسق والدعارة.

ويذكر البعض أن للغربي فضلا كبيرا في تطوير مسيرة الرقص الشرقي في مصر، حيث كان الرقص في الماضي مجرد قفز رتيب ومُمل دون أي اهتزاز، حتى قرر هو تعليم الفتيات هزّ الوسط والبطن، ومنه انتقل النمط الجديد للرقص إلى الأجيال الحديثة فيما بعد، مثل بديعة مصابني، وتحية كاريوكا، ثُم سامية جمال، وغيرهن.

والمريب في الأمر أن شهرة إبراهيم الغربي امتدت إلى أوروبا، وصار الأجانب يتندرون بأن مَن زار مصر ولم يزر بيوت الغربي كأنه لم يزرها من قبل، ونسج العامة حكايات وأساطير حول قوته وقسوته وأسحاره.

ومع الوقت أصبح الرجل خطرًا على الدولة نفسها بما في ذلك المحتل نفسه، بعد أن وصل عدد بيوته العلنية إلى ٥٠ بيتًا، وزاد عدد النساء المتعاملات معه على الألف، وتكررت الشكاوى من فتيات تعرضن للاختطاف أو الإجبار على ممارسة الرذيلة على أيادي عصابته، فضلاً عن شكاوى رجال الدين وعلماء الأزهر التي نُشرت في محتلف الصحف، وهو ما دفع وزارة الداخلية في ذلك الوقت إلى القبض على إبراهيم الغربي سنة ١٩٢٣ والتحقيق معه، وقد كشفت التحقيقات بعد ذلك أن الرجل يدفع رشى مُنتظمة إلى مأموري وضباط وموظفي أقسام الأزبكية وبولاق وعابدين، كما كشفت أنه يُقدّم هدايا ذهبية إلى المستخدمين الأجانب في الشرطة، وهو ما حكاه رُسل باشا حكمدار القاهرة بالتفصيل في مذكراته.

وبين ليلة وضحاها تحول «الغربي» إلى قضية الصحافة المصرية خلال العشرينات من القرن العشرين، ولم تخلُ مطبوعة من حكايات أو تقارير عن إمبراطوريته، قبل أن يتم تقديمه إلى المحاكمة الرسمية، لتحكم عليه بالسجن خمس سنوات. ويبدو أن «الغربي» الذي عاش حياته مترفًا لم يحتمل حياة السجن، فمات بعد عام واحد من دخوله، ومن الجائز أن تكون هناك شبهة جنائية وراء موته، إذ شاع في تلك الأيام دس السم لبعض السجناء للتخلص منهم، بخاصة إن كانوا يحتفظون بأسرار خطيرة. وهكذا اختفى الرجل الذي حكم مملكة الدعارة لنحو عقدين من الزمن.

قوادون آخرون

وفي الإسكندرية اشتهر قواد كبير آخر، اسمه رجب محمد رجب، تخصص في اختطاف الفتيات القاصرات وإجبارهن على العمل في الدعارة، وقد ظهر الرجل في حي اللبان، وجمع حوله عددا من البلطجية والمجرمين، كانت مهمتهم خطف الفتيات ثم تصويرهن في أوضاع مخلة بعد هتك عرضهن وإرهابهن، للعمل لديهم، وقد تعددت بيوته، واقترنت جرائمه بتعاطي المخدرات، حتى تم القبض عليه وعصابته، وتقديمه إلى المحاكمة وسجنه.

وفي زمن مقارب عاش كثير من الشوام في مصر على مهنة البغاء، وانتشرت محلات رسمية ومرخصة للعمل في ذلك، في منطقة باب الشعرية ووش البركة وعماد الدين. ومن أشهر هؤلاء القواد إلياس بمنطقة باب الخلق، والذي كان متخصصا في عرض النساء الأجنبيات القادمات من تركيا وسوريا ولبنان، وكان يضع تذكرة للدخول بخمسة قروش. وكانت محلات الرجل تقدم رقصات متعددة مثيرة للغرائز، حتى بدأ تطوير الرقص الشرقي في ذلك الوقت على يد الراقصة الشهيرة بديعة مصابني، وهي التي ستهاجر من مصر فيما بعد.

ويمكن القول إن الراقصة امتثال فوزي كانت لها شهرة تضاهي شهرة إبراهيم الغربي، بسبب اتساع أنشطتها خلال الثلاثينات من القرن العشرين، وكانت امتثال في البداية تمتلك صالة رقص بشارع عماد الدين، قبل أن تنتقل إلى الأزبكية حيث افتتحت كازينو آخر، وبدأت تعليم الفتيات الرقص، ثم امتد نشاطها إلى تشغيل الحانات الصغيرة وتشغيل المومسات من خلالها، وذاع صيتها بشكل كبير. وبدت نهاية «امتثال» مشابهة لنهاية «الغربي» حين تعرضت لاعتداء أحد البلطجية، ضربها بزجاجة خمر مكسورة في رقبتها، وترك فيها عاهة توارت تمامًا بعدها حتى رحلت.

ويشير الدكتور عبد الوهاب بكر، في دراسته المتميزة عن البغاء، إلى أن مهنة الدعارة والقوادة ارتبطت في جانب منها بشكل كبير بالأجانب الذين حصلوا، في ظل الامتيازات الأجنبية، على معاملات خاصة، ويدلل على ذلك كشف بأسماء أشهر القوادات وأصحاب بيوت الدعارة، مثل بهية الزايطة، وشاهور شان، وفريدة ينّي، وأنجليكا خريستو.

وبين أيدينا عدة أوراق من أرشيف وزارة الداخلية، تتضمن تراخيص لإنشاء بيوت دعارة تحت مُسمى «بيت عاهرات» ويُكتب فيها اسم صاحب البيت

ومهنته وعنوان البيت المطلوب فتحه، مع شهادة وتعهد بخلو البيت من المحظورات، التي في الغالب المخدرات وما شابه، ويتم توقيع الترخيص من القسم التابع له محل البيت، ثم يتم ختمه بختم وزارة الداخلية.
أما روايات أديب نوبل، الأستاذ نجيب محفوظ، فقد قدمت مادة ثرية لأحوال القوادات والبغايا في مصر، خلال النصف الأول من القرن العشرين، وكان من الواضح تركز بيوت عديدة في الإسكندرية، مثلما هي الحال في قضية ريا وسكينة، حيث كانتا في الأصل من القوادات الشهيرات.

حكاية سليمة

ويحكي يحيى حقي في ذكرياته عن فترة عمله بالصعيد في كتاب «خليها على اللـه» كيف كان يرى موكب الغواني وهُن في طريقهُن إلى الوحدة الصحية، لتوقيع الكشف الصحي، ويقف الكاتب عند فتاة اسمها «سليمة» ليقدم لنا حكايتها بأنها فتاة لديها أخلاق قوية وقواعد صارمة، رغم كونها زعيمة البغاء السري في منفلوط، ويصفها قائلاً: سمراء ممشوقة القد، عالية الرأس، طويلة العنق، مستقيمة الكتفين، كانت تدور على الموظفين العزاب جميعًا فلا تفشي سرًا ولا تحدد أجرًا ولا تحرم الفقراء من مرتعها. وكانت سليمة شهيرة بضحكها الدائم وصفاء حديثها ورقته، وعدم الشكوى من أحد أو زمن.
وتجدر الإشارة إلى أن انتشار الدعارة في مصر صاحبه مقاومة شديدة من مصلحين وسياسيين، مثل عبد اللـه النديم ومحمد فريد، والشيخ محمود أبو العيون الذي كان له دور كبير في تقييد البغاء والتنديد به، من خلال مقالات عديدة نشرها في «الأهرام» وشكاوى بعث بها إلى رؤساء مجالس الوزراء ورؤساء الأحزاب وأعضاء البرلمان، حتى صدرت عدة قوانين مقيدة، مهدت لقانون إلغاء البغاء تدريجيًا، بداية من قرار إبراهيم عبد الهادي رئيس مجلس الوزراء سنة ١٩٤٩ بإغلاق بيوت العاهرات، وعدم الترخيص بفتح بيوت جديدة، وحتى قرار مصطفى باشا النحاس رئيس الوزراء في ١٩٥١ بإصدار قانون مكافحة الدعارة بكل أشكالها. ويُنسب الفضل في إصدار ذلك القانون لنائب باب الشعرية سيد جلال، الذي قدم سنة ١٩٥١ استجوابًا للحكومة حول السماح باستمرار بيوت البغاء في بلد الأزهر.
واللافت للنظر أن حظر البغاء قانونًا سنة ١٩٥١ لم يُنه وجوده في مصر، حيث تكررت حوادث ضبط شبكات دعارة كُبرى شغلت الرأى العام، كان من بينها قضية شهيرة سنة ١٩٧٢ شاركت فيها فنانات شهيرات.

أصحاب الكيف والمزاج

«الكيف بيذِّل»
مثل شعبي

هذه دراسة في التاريخ الاجتماعي للمصريين، لا علاقة لها بالسياسة وإن تداخلت في بعض جزئياتها، ولا تشابك بينها وبين الاقتصاد وإن بدا في انعكاساتها. إنه الكيف أو المزاج الذي حكم المصريين في التاريخ الحديث، وشمل جميع الطبقات والفئات، من الحُكام حتى أدنى المحكومين.
إنَّ المزاج في اللغة هو الحال المختلط، ومزج الشيء أي خلطه، والمقصود به حال الذهن لدى الإنسان، والمزاج نوعان، منه المشروع ومنه الممنوع، فأما المشروع فهو كل ما هو مُتاح قانونا أو شرعا أو عُرفًا، مثل السجائر والمعسلات وكل أنواع الدخان، وأما الممنوع فهو كل ما هو مُجرّم قانونًا مثل المخدرات بأنواعها، أو محرّم ومقيد شرعًا مثل الخمور بأنواعها، ودرجاتها. ولا شك أن المصريين منذ القدم يمكن اعتبارهم أصحاب مزاج، لهم عاداتهم في تحقيق صفو البال، والهروب من الهموم، وهو أمر لا يعيبهم لأن طبائع الشعوب تتضمن كثير من العادات القبيحة أو غير المرضي عنها، مثلما تتضمن كثيرا من السمات والصفات الحسنة.
ومَن يطالع حكايات المؤرخين الأواسط أو المتأخرين يلتقي كثيرًا بحكايات متنوعة وعديدة عن المزاج، المشروع منه والممنوع، سواء في رحلة الدُخان وتطورها أو حتى ما يخص المُسكرات والمُخدرات. ولا شك أن تاريخ جماعة الحشاشين التي أسسها الرجل الداهية حسن الصباح، وصارت التنظيم الأشهر في العصور الوسطى، ارتبط ارتباطًا وثيقًا بالمُخدرات، وشاع في شهادات مؤرخي العصر الأيوبي استخدام الحشيش في إقناع المُريدين بالجنان التي يقود «الصباح» أتباعه إليها.

الحشيش في مصر

ولا يعرف على وجه الدقة تاريخ دخول نبات القنب الهندي، المعروف بالحشيش، إلى مصر، لكن من الواضح أن تداوله كان مُباحا حتى الربع الأخير من القرن التاسع عشر الميلادي، طبقًا لبيانات وزارة الداخلية التي أشارت إلى أن أول مرسوم لتجريمه كان في ٢٩ مارس ١٨٧٩ إذ مُنعت زراعته تمامًا، وحُظِر استيراده، وتم فرض عقوبة على المخالفين تتمثل في غرامة قدرها مئتي قرش.
ويُمكن القول إن المصريين عرفوا الأفيون مُنذ القدم، إلا أن استخدامه كمخدر شاع في عهد المماليك، بخاصة أنه كان يتم استخراجه من ثمرة شجرة الخشخاش التي لم تنضج بعد، وهي شجرة حمراء أو بنفسجية، لها ثمرة عبارة عن كبسولة تقارب جوزة الهند، وكان هُناك اعتقاد سائد مُنذ عصور سابقة بأنه دواء لكثير من الأمراض، خصوصا أنه يُسكن الآلام على المتوجعين، قبل أن يتم تصنيفه ضمن المُخدرات.
وعرفت مصر الدخان بشكل كبير وواسع بعد الغزو العثماني سنة ١٥١٧ ميلاديا، والذي انتقل للمصريين عبر التجار الأوروبيين وبعض الهجرات الأجنبية إلى المحروسة. وفي القرن الثامن عشر وصلت مصر نوعيات متعددة من الدُخان، بعد قيام كثير من التُجار بافتتاح مقاهٍ مُخصصة لتدخينه، مع شُرب مشروب القهوة الذي ذاع أيضا في ظل تصور البعض أنه نوع من المُسكرات،

حتى شاعت الفتاوى لدى عُلماء الدين حول حِل أو حُرمة شُرب القهوة. وطبقا لكتاب «وصف مصر» فقد رأى علماء الحملة الفرنسية المصريين وهُم يدخنون الشيشة أمام منازلهم، لكن ذلك كان مقصورًا على أحياء بعينها داخل القاهرة. وفيما بعد صارت النارجيلة حاضرة في كل منزل من منازل كبار القوم، اقتداء بالوالي محمد علي الذي كان التدخين عادة يومية له، بخاصة أنه كان في الأصل تاجر دخان.

استياء الجبرتي

ومع الوقت اتسعت المقاهي واحتوت معظمها آلات للتدخين، وهي التي يُطلق عليها المؤرخ الشهير عبد الرحمن الجبرتي مصطلح «الأقصاب والشبكات». ويبدو من وصف الجبرتي لها أنها كانت مُستهجنة أو ممقوتة من العامة، حتى إنه يتهكم بحدّة على جنود الباشا (محمد علي) لأنَّهم «يشربون الدُخان من غير احتشا ولا حياء»، وأنهم يمرون بالأسواق وفي أياديهم الأقصاب والشبكات، وهو ما يوحي بأن تدخينها كان يُقابل بعدم احترام من جانب العامة.

ويذكر «الجبرتي» في حكاياته في شهر شعبان عام ١٢٣١ هجريا، والموافق (١٨١٦ ميلاديا) ما يفيد إتجار محمد علي باشا نفسه في الدخان، وافتتاحه مقهى خاصا به في ضاحية شبرا ليشربها الناس فيه، ويحكي المؤرخ الكبير كيف سرق اللصوص قهوة الباشا التي يجلس فيها الأعيان والتجار يشربون القهوة ويدخنون فيها. وتبدو سرقة قهوة الباشا كأنَّها رسالة خطيرة موجهة للدولة المصرية، التي استطاع اللصوص أن ينهبوا أحد ممتلكات أكبر رأس فيها، وهو ما آثار حنق وغضب محمد علي فاستدعى كبير الدرك (الشرطة) وألزمه هو ورجاله بإحضار «السُرّاق والمسروقات ولم يقبل عذرا في ذلك».

وتمضي الحكاية بأن أحضر الدرك خمسة أشخاص بعد بضعة أيام، وقيل إنَّهم أحضروا المسروقات كلها، وتم ضربهم حتى أرشدوا عن كل مَن يعرفون من اللصوص، سواء في القاهرة أو القليوبية أو المنوفية أو الغربية، حتى بلغ عدد اللصوص أكثر من خمسين شخصًا. وقد تم جمع كل هؤلاء اللصوص معًا وخوزقتهم جميعًا. وهكذا كان القتل عقوبة الذين تسوِل لهم نفوسهم سرقة الوالي.

ويبدو أن التدخين قد تحوّل بعد ذلك إلى عادة عامة لدى كُل الناس، ولم يعُد يُنظر إليه كأمر مُجرّم أو حرام أو حتى معيب، حتى إننا نُفاجأ بأن كثيرا من شيوخ وعلماء الأزهر كانوا يُدخنون، وقد شاعت في بعض المصادر أن سبب وفاة المصلح الشهير جمال الدين الأفغاني سنة ١٨٩٧ ميلاديا هو إكثاره من شرب الدُخان، وقد رثاه أحد تلاميذه عند وفاته قائلاً: «الملح والشاي والدخان أودت بروح شيخنا الأفغاني».

ويبدو أنَّهم اكتشفوا مع الوقت الأخطار المصاحبة للتدخين، فظهرت في بعض الصحف والمجلات مقالات تدعو إلى الابتعاد عن التدخين واعتباره خطرا، وبدأت مصر تشهد تجمعات ومبادرات اجتماعية للوقاية من الدخان وآثاره، لكنها لم تصل إلى حد التشريع.

تأثير الإنجليز

ويلاحظ أن السنوات التالية لاحتلال مصر سنة ١٨٨٢ شهدت اتساعًا كبيرًا في إنتاج وتداول الدُخان، وشاعت بين الطبقات الفقيرة ظاهرة «لف السجائر» فضلاً عن السماح لكثير من الأجانب بإنشاء شركات متخصصة في إنتاج وتصنيع التبغ، كان من بينها شركة ماتوسيان، وهي التي تطورت وتم تمصيرها فيما بعد، لتصبح جزءا من الشركة الشرقية.

ويعد ماتوسيان أحد أشهر الخواجات الذين افتتحوا مصانع صغيرة للسجائر، إلى جوار الخواجة نسطور جناكليس، الذي أسس في الوقت نفسه مصنعا لإنتاج البيرة والخمور.

وقد شاع في الكتب والمجلات القديمة نشر إعلانات مباشرة عن السجائر تحت عناوين لافتة، مثل «سد الفراغ» و«المذاق الرائع»، وشاعت حملات شراء السجائر الوطنية وتفضيلها على المستوردة، وهو ما استمر حتى سنة ١٩٨١ عندما صدر القانون رقم ٥٣ للوقاية من خطر التدخين.

ويمكن القول إن اتساع أعداد الجاليات الأجنبية في مصر، خلال الربع الأخير من القرن التاسع عشر الميلادي، أدى إلى توسيع نطاق أنواع متنوعة من الخمور والنبيذ، والسماح بإنشاء المصانع المحلية لذلك. كذلك فقد شهدت مصر دخول مخدر الكوكايين، واتسع استخدامه بين كثير من أصحاب الثروات، وهو ما دفع الفنان الكوميدي حسن فايق إلى أن يُغني مونولوجًا شهيرًا في عشرينات القرن الماضي يقول فيه:

«شم الكوكايين خلاني مسكين/
مناخيري بتون وقلبي حزين/
وعينيا في راسي رايحين جايين».

والمعروف أن الكوكايين مستخلص من أوراق نبات الكوكا الذي ينمو في أمريكا اللاتينية، بخاصة في بيرو وبوليفيا وكولومبيا، كما يزرع في بعض بلدان آسيا مثل الهند وإندونيسيا.

والملاحظ أن الفترات التي كانت تشهد صخبًا سياسيًا وتصاعدًا في حركة مجابهة السُلطة، كانت تشهد في الوقت ذاته ارتفاعًا كبيرًا في كميات المخدرات التي يتم تهريبها للبلاد، والمُطلع على الصحف في سنة ١٩٥٠، وهي السنة التي شهدت بداية حرب الفدائيين ضد الإنجليز في قناة السويس، يُدهَش من كم الموضوعات الصحفية التي تُحذر من زيادات كبيرة في كميات المخدرات المجلوبة للبلاد. وربما يرى البعض أن ذلك كان مقصودا من جانب دولة الاحتلال، حتى يتسنى للشعب الاستكانة ونسيان الثورة.

إنَّنا نقرأ مثلا في مجلة روزاليوسف أن عام ١٩٥٠ شهد وحده دخول ١٥ ألفا و٣٦٨ كيلوجرام مخدرات، وأن تلك المخدرات شملت الحشيش والأفيون والهيروين. وأجرت المجلة حوارًا مع مدير مصلحة خفر السواحل، اتهم فيه الإنجليز صراحة بإدخال المخدرات إلى البلاد، بينما وضعت جريدة «المصري» شعار «ابحث عن اليهود وراء عمليات تهريب المخدرات» في اتهام صريح لعملاء الدولة الصهيونية الجديدة. وتكشف جريدة «المقطم» في نفس

السنة، عبر سلسلة من التحقيقات الصحفية، أن مصر هي أكبر سوق للمخدرات في الشرق الأدنى، وفي سائر البلاد العربية.

أمزجة الحُكام

ولا شك أن الحُكام والزعماء والساسة كانت لهم أمزجة متنوعة، وتكشف القراءة السريعة لتاريخ مصر الحديث أن الجميع كان يُحب نوعًا بعينه من الدُخان، وربما كان الاستثناء الوحيد في ذلك هو مصطفى باشا النحاس، والذي كان يمثل استثناء في كثير من الأمور، فالرجل لم يدخن في حياته سيجارة واحدة، ولم يشرب قط كأس خمر، ولم يعرف عنه تعاطي أي من المنشطات أو المهدئات، وحتى القهوة كان قليلاً ما يتناولها.

لقد ذكرنا أن عهد محمد علي باشا والي مصر شهد اتساع تداول الدخان بالأسواق، حتى صار التدخين عادة الأعيان والأثرياء وكبار رجال الدولة، وعلى دربه سار في نفس عادة التدخين ابنه إبراهيم باشا، إلا بعد ظهور خديوي مصر إسماعيل باشا وفي يده كأس الخمر في إحدى الحفلات، بحضور كثير من الضيوف من السفراء والأمراء الأوروبيين.

أما الملك فؤاد الأول الذي حكم مصر منذ عام ١٩٢٠ وحتى ١٩٣٦، فقد اشتهر بتدخين البايب، وكان يستخدم نوعًا من التبغ اسمه «دانهيل» ويرفض استخدام أي نوع آخر. وقد كان شائعًا أن الرجل يشرب الخمر باعتيادية شديدة، مثله في ذلك مثل باقي الأسرة الملكية، وكثير من العائلات الكبيرة، وبالنسبة للملك الملك فاروق، فرغم ما أشيع حول فساده لم يكن يتناول الخمر قط، وكان يدخن السيجار قليلاً حتى تم خلعه، فلما سافر إلى منفاه صار تدخين السيجار عبئا ماليا عليه.

ويكشف لنا كريم ثابت في مذكراته، أن الملك فاروق كان يرفض تناول الخمور في مختلف الحفلات والمناسبات، مؤكدًا للناس أن الإسلام يُحرّم شرب الخمر.

أما اللواء محمد نجيب، أول رئيس للجمهورية ورئيس مجلس قيادة ثورة يوليو، فيعد أشهر مُدخن بايب في تاريخ السياسة المصرية الحديثة، حتى إنه لم تُلتقط له أي صور دون البايب، حتى تلك الصور التي تم التقاطها له وهو يخرج من مبنى الرئاسة مع عبد الحكيم عامر ليتم التحفظ عليه. ولم يكن «نجيب» سكيرًا حتى تم إقصاؤه وتحديد إقامته في منزل زينب الوكيل بالمرج، حيث لجأ لشرب الخمر، وفيما بعد خصصت رئاسة الجمهورية صندوق «ويسكي» له كل أسبوع ليبقى دائمًا خارج الوعي. لقد كان عبد الناصر يعتقد أن محمد نجيب سيعود مرة أخرى إلى الحُكم، لذا فقد أمر بأن يبقى سكيرا لأطول فترة.

ولم يُعرف عن جمال عبد الناصر قط حبه لشرب الخمر، لكنَّه كان مُدخنًا شرها للسجائر الشعبية «البلمونت»، وظلت تلك العادة معه حتى أصيب بالسكري بعد انفصال مصر وسوريا عام ١٩٦١، وتكررت نصائح الأطباء له بضرورة الإقلاع عن التدخين تماما. ويذكر الدكتور الصاوي حبيب، طبيبه الخاص، في مذكراته الصادرة عن هيئة الكتاب، أنه اضطر إلى الإقلاع عن

التدخين عام ١٩٦٨، قبل أن يرحل بأزمة قلبية في سبتمبر ١٩٧٠.
وقد نقل الكاتب عمر طاهر، في حكايته لسيرة رجل الصناعة الشهير ماتوسيان، أن الرئيس جمال عبد الناصر التقى ماتوسيان في أحد الأفراح، وسأله إن كان يستطيع أن ينتج سيجارة مصرية بنفس نكهة «البلمونت»، وهو ما دفعه إلى تحضير خليط جديد من التبغ بعد تحليل سيجارة «البلمونت»، وهى التي أطلق عليها «كليوباترا»، وبعث إلى الرئيس بعلبة فاخرة تحتوي عليها، لكنّها لم تلق إعجاب «عبد الناصر» وهو ما كان دافعا إلى أن يُهاجر ماتوسيان نفسه بعد ذلك من مصر.
وكان الرئيس أنور السادات مكبًا على كل أنواع المزاج، نتيجة تغلغله وانغماسه في الحياة الشعبية خلال سنوات ما قبل الثورة. وقد ذكر الأستاذ محمد حسنين هيكل أن السادات كان يشرب يوميا كأسا من الفودكا على سبيل الاستشفاء، لكن معارضيه من الإسلاميين اعتبروه سكيرًا معتاد السُكْر، بينما وصفه معارضوه من اليساريين بالحشاش مُدعين بذلك تدخينه للحشيش، وقد غنَّى الشيخ إمام، من كلمات أحمد فؤاد نجم، أغنية للسخرية من الرجل باعتباره حشاشًا، وقد شاعت أيضا أمور عديدة، لكن ما كان واضحًا هو أن الرجل يتفنن في استخدام البايب ليُدخن أجود أنواع التبغ الأمريكي.
وبالنسبة للرئيس الأسبق حسني مبارك، فرغم حرصه الشديد على الظهور بمظهر الملتزم طوال سنوات حكمه، ذكر هيكل في كتابه عن «مبارك وزمانه» أن أول لقاء جمعه معه بعد اختياره رئيسا للجمهورية، رآه فيه يُدخن السيجار، وأنَّه أهدى إليه سيجارًا كبيرًا ظلَّ محتفظًا به، على عادته في الاحتفاظ بهدايا الزعماء. وقد ذكر مقربون من الرئيس الأسبق أنه لم يكن يشرب الخمر، واقتصر شرابه على البيرة المثلجة.
والمؤسف فيما يخص أمزجة المصريين أنها شهدت في العقود الأخيرة انحدارًا كبيرًا، ربما ارتبط بضعف القوة الشرائية، واتساع حالة البحث عن هروب من وقائع وهموم حياتية، وهو ما أدى إلى انتشار نوعيات خطيرة من المخدرات، مثل الترامادول الذي هو من المخدرات التخليقية التي كانت مجرد مسكن للألم، تم إنتاجه ليساعد مرضى السرطان على تجاوز آلامهم، لكنه انتشر بشكل كبير بين الفئات الدنيا والأحياء الشعبية، وقد ظهرت له عدة بدائل مثل الأتيفان، الأليوم، الروهبينول، الفالسكون، الميثادون.

الجلادون.. حمزة البسيوني نموذجا

«أنا عبد المأمور»

حمزة البسيوني بعد تقاعده لمصطفى أمين

كتاب «سنة أولى سجن»

حكايات الجلادين في بلادنا مريرة، موجعة، تستنزف دواخل النفس البشرية وتدمغ الأنظمة المتسلطة بإدانات قاسية تُبقي أولئك المتورطين في التعذيب في خانات الحُقراء وعبيد الطغاة مدى الدهر، وتحولهم إلى نماذج قُبح سادية يتم استدعاؤها في الأعمال الأدبية والسينما.
وربما يُعد النموذج الأبرز في تاريخ مصر الحديث للجلاد، ذلك الرجل القاسي الذي كان مسؤولاً عن السجون الحربية في عهد عبد الناصر، وهو اللواء حمزة البسيوني الذي قال عنه الكاتب والمؤرخ صلاح عيسى إنه «شمشون» السجن الحربي، ووصفته زينب الغزالي بـ«الوحش الكاسر»، وسماه الشاعر أحمد فؤاد نجم بـ«البعبع»، وأفاض الكاتب الكبير مصطفى أمين في تصوير ساديته ووحشيته.

بدايات الرجل

ورغم عدم ورود اسمه في مذكرات قادة ثورة يوليو، كواحد ممن لعبوا دورًا في تنظيم ثورة يوليو عام ١٩٥٢، نسب إلى الضباط الأحرار كواحد ممن انضموا إلى الحركة قبل ليلة ٢٣ يوليو. ورغم أن القائمة التي أعلنها الرئيس الراحل أنور السادات للضباط الأحرار، في القرار الجمهوري رقم ١٣٨٦ لسنة ١، لم تتضمن اسمه بين ١٦٨ ضابطًا تم إقرار معاش لهم يعادل معاش الوزراء، فقد ورد ضمن قوائم الضباط الأحرار المعلنة في مذكرات كل من عبد اللطيف بغدادي، وصلاح نصر، وهي القائمة التي تضمنت أسماء أكثر من ٣٠٠ ضابط كانوا أعضاء بالتنظيم.
وطبقا لمنهجنا البحثي المستبعد للأحكام الرسمية والمعلومات الصادرة عن مؤسسات الدولة، فإننا سنأخذ بقوائم أعضاء تنظيم ثورة يوليو، وهم خارج السلطة، لذا فإننا نؤكد معلومة عضوية حمزة البسيوني في تنظيم الضباط الأحرار. وقد ورد اسم الرجل في قائمة الضباط الأحرار التي كتبها عبد اللطيف بغدادي في مذكراته، ضمن ضباط القاهرة باسم «سيد حمزة حسين البسيوني». وقد كانت رتبة حمزة البسيوني وقت قيام ثورة ٢٣ يوليو «صاغ» أي «رائد»، وهو ما يشير إلى أن الرجل كان عمره في حدود ثلاثين أو واحد وثلاثين عاما، بمعنى أنه من مواليد ١٩٢٢ أو ١٩٢٣. والحقيقة أن أيًا من الكتب التي تحدثت عن الرجل لم تشر من قريب أو بعيد إلى تاريخ مولده، حتى إن موسوعة العسكريين المصريين لم تقدم تاريخ ميلاده ضمن المعلومات المتاحة عنه.
ويبدو أن الصاغ سيد حمزة البسيوني لم يكن يهتم بلعب أي دور سياسي في سنوات عمله الأولى، وهو ما جعله غائبًا عن مذكرات وذكريات معظم قادة الضباط الأحرار، أمثال اللواء محمد نجيب، خالد محيي الدين، وجيه أباظة، عبد اللطيف بغدادي، حسين الشافعي، كمال الدين حسين، وحتى أنور السادات نفسه في كتابيه «قصة الثورة كاملة»، و«البحث عن الذات».
ولم يعرف اسم حمزة البسيوني بشكل عام إلا في عام ١٩٥٤، حين أوكلت إليه مهمة الإشراف على السجون الحربية، وأشهرها السجن الحربي بمدينة نصر، الذي هدمه الرئيس أنور السادات فيما بعد في إطار ما عرف

بثورة التصحيح سنة ١٩٧١. في ذلك الوقت بدأ الناس يسمعون همسا باسم «حمزة البسيوني» أو الوحش، وبدأ البعض يردد حكايات وقصص مفزعة عن «الأوبرج» أو «الباستيل» كناية عن السجن الحربي الذي احتضن كثيرا من المدنيين من الساسة والكتاب والمفكرين، في وقائع ربما لم تشهدها مصر من قبل.

عام الصراعات

ومن المهم، ونحن نستعرض جوانب شخصية حمزة البسيوني، أن نشير إلى الظروف التي صاغت تلك الشخصية النادرة، والرجال الذين أحاطوا به وساهموا في تشكيل سلوكه وتصرفاته بشكل عام. لقد كان عام ١٩٥٤ هو أعنف أعوام المواجهة بين ثورة يوليو وأعدائها، كما يذكر المؤرخون. ففي هذا العام دخل عبد الناصر معركة شرسة مع رئيس مجلس قيادة الثورة محمد نجيب، ونجح في إقصائه وتحديد إقامته، وتخلص عبد الناصر من جميع الساسة القدامى في محاكمات شرسة أجرتها محكمة الثورة، ثم تخلص من جماعة الإخوان المسلمين بقرار بحلها، ثم بتدبير حادث المنشية، أو بتشجيع بعض عناصر الإخوان للقيام به، ثم التخلص من معارضيه داخل مجلس قيادة الثورة نفسه، مثل خالد محيي الدين ويوسف صديق.

في تلك الأثناء كانت كفة السياسة تميل بشكل واضح ناحية عبد الناصر، ذلك الرجل الذي استطاع أن يبني لنفسه زعامة إقليمية وشعبية غريبة، وكان على جميع الطامحين في الصعود السياسي أن يعلنوا ولاءهم الكامل والتام إلى الرجل، لتتسع حينها ظاهرة كتابة التقارير وإعلانات الولاء والنفاق إلى أقصى درجة.

ومع إطلاق الرصاص على عبد الناصر في ميدان المنشية بالإسكندرية، وهتافه وقتها «أنا جمال عبد الناصر. أنا الذي علمتكم العزة والحرية والكرامة» كان من الواضح أن ذلك الرجل اختار الطغيان سياسة، وسعى إلى تحويل جميع الناس إلى عبيد. لقد تعجب الكاتب العظيم عباس محمود العقاد من تلك العبارة وقال لتلاميذه ـ حسب ذكر

بعضهم ـ إنكم ستعيشون لتروا هذا الرجل يحول الشعب إلى عبيد. وبالفعل رحل العقاد عام ١٩٦٤، ولم يشهد كل جرائم العهد الناصري التي افتضحت بعد نكسة يونيو ١٩٦٧، ثم انكشفت تماما بعد وفاة عبد الناصر في سبتمبر عام ١٩٧٠.

المهم أنه في عام ١٩٥٤ بادر كثير من الساسة والكتاب إلى تأييد الرئيس عبد الناصر تأييدًا واسعا، وحتى زملاؤه في مجلس قيادة الثورة كان عليهم توضيح مساندتهم للرجل الذي أصبح زعيمًا كبيرًا، فاتجه كثير منهم إلى مخاطبة عبد الناصر بكلمة «ريس» بدلاً من «جمال» كما كانوا ينادونه قبل ذلك. ومع استعانة عبد الناصر بزملاء السلاح في تدعيم أركان نظامه، والتوسع في منح العسكريين سلطات داخل كل المؤسسات المدنية، سارع كثير من العسكريين إلى إعلان ولائهم للرجل عن طريق محاربة والتنكيل بمن اعتبروهم أعداء له، حتى تم الاعتداء على القاضي الشهير عبد الرازق

الدستوري في مجلس الدولة، وعلى الزعيم الوطني أحمد حسين زعيم «مصر الفتاة» وبرزت أسماء عديدة لعسكريين برعوا في ضرب الساسة والتنكيل بهم، بل وتعذيبهم، كان منهم أحمد أنور، وحسن خليل، بل وصلاح سالم نفسه الذي كان يضرب وكلاء وزارة الزراعة وكبار موظفيها بـ«الشلّوت» كما يذكر الكاتب والمؤرخ أحمد رائف.
في هذه الظروف نما وترعرع حمزة البسيوني، وفي تلك الأثناء بدأ يكشر عن أنيابه وبدأ الناس يسمعون اسمه وحكاياته.

مولد جلاد

في كتابه «الإخوان المسلمون بين إرهاب فاروق وعبد الناصر» يحكي علي صديق بداية رؤيته لحمزة البسيوني في السجن الحربي، بعد حادث المنشية في ٢٦ أكتوبر عام ١٩٥٤. يقول الرجل: «نودي على مجموعة منا بسجن مصر وتم ترحيلنا إلى السجن الحربي. الباستيل. وما إن وصلنا باب السجن حتى فوجئنا كأن أبواب جنهم قد فتحت، وظهر زبانيتها يلوحون بالسياط والعصيّ الغليظة، وفي لحظات بدأ الضرب على جميع أنحاء الجسم، على الوجه والرأس والأضلع والظهر، وأمرونا بالجري والضرب يزداد ضراوة، وسقط كثيرون مغشيًا عليهم والدماء تنزف، وكان يشرف على الضرب صلاح دسوقي الششتاوي، ويشاهدنا أحمد أنور وحمزة البسيوني مدير السجن».
ويحكي «صديق» كيف شاهد البسيوني وهو يعد بنفسه مشنقة تربط حول البطن، ليتم من خلالها تعليق المتهم مثل الذبيحة حتى يصبح سهلاً ضربه بالسياط. وكان التعذيب يتم في غرفات خاصة، وعندما يرغب المتهم في الاعتراف يتم سحبه إلى صلاح الدسوقي وحمزة البسيوني للاعتراف أمامهم، وفي بعض الأحيان كان علي صبري موجودا إلى جوار حمزة.

التعذيب بالكلاب

وإذا كان البعض يعتبر شهادات أعضاء الإخوان ملفقة، فإن كثيرين غير مسيسين يقدمون شهادات مشابهة حول أساليب التعذيب الحديثة التي ابتكرها حمزة البسيوني، والتي كان منها إطلاق الكلاب البوليسية على المتهمين لإرهابهم وإثارة الفزع لديهم.
إنَّ الكاتب الكبير مصطفى أمين يحكي لنا جانبًا من ذلك في كتابه الشهير «سنة أولى سجن» نقلا عن أحد المعتلقين الذين التقاهم داخل السجن الحربي، ساردًا كيف استقبل عند دخوله «الأوبرج» عام ١٩٥٤ بكلبين هما «ميمي» و«ليلى» حيث التفا حوله لينهشا لحمه. ويقول إن حمزة البسيوني اصطحبه إلى معتقل «٣» وتركه فريسة للكلبين، ثم أحضر له ورقة وقلمًا وطلب منه كتابة كل شيء عن حياته. ثم يكشف الكاتب الكبير قصة الكلب الأكبر والأقوى «لاكي» الذي لا يمكن أن يصدق أحد أنه كلب نظرا لضخامته ووحشيته، وقد كان الضباط يخشونه ويسرعون الخطى بعيدًا إذا تم جلبه لأحد.
ويقول صاحب كتاب «سنة أولى سجن» أيضا: «كان حمزة هو الملك، وكلاب

السجن هم أصحاب السمو الأمراء، فقد كان في المعتقل رقم ٣ مجموعة من الكلاب، أكبرها لاكي، وكان هناك الكلب «ركس» الذي يعتز به حمزة البسيوني والكلبة «عنايات» زوجة «ركس»، وكانت هناك كلبة تدعى «جولدا». وكان أفخر أنواع اللحم مخصصا للكلاب، وأحقرها للمسجونين السياسيين، وكانت الكلاب تأكل أولا ثم يأكل الحراس، والويل للحارس الذي يأكل من اللحم قبل أن تنتهي الكلاب من طعامها. إن سعادة ملك التعذيب اشترط أن يكون خدم الكلاب من حملة الشهادات العليا، ووقع الاختيار على خريج من كلية الآداب، وآخر من كلية الهندسة، وثالث من كلية العلوم، ورابع من كلية الطب».

وينقل مصطفى أمين في كتابه «سنة ثالثة سجن» عن المستشار حسن الهضيبي، المرشد الثاني لجماعة الإخوان المسلمين، أنَّهم اكتفوا في السجن الحربي بحبسه داخل زنزانة فيها ١٥ كلبا، وكانت تلك الكلاب تتبول عليه وتتشاجر وتقذف عليه.

أساليب تعذيب مبتكرة

وتفيض مذكرات المساجين السياسيين، بدءا من زينب الغزالي وعلي جريشة وحتى مصطفى أمين وصلاح عيسى، وضحايا كمشيش، سردًا لأساليب التعذيب وفنونه المبتكرة التي سادت في السجن الحربي، والتي نقلها بعض الضباط فيما بعد إلى غيرها من السجون.

إن الطريقة التقليدية للتعذيب كانت التعليق في الشباك أو السقف أو في سارية، والضرب بالسياط بعد دهن الجسد كله بالزيت، حتى يكون اللسع أكثر إيلاما. وهناك آلة النفخ التي يحكي علي صديق السجين الإخواني كيف رآهم يستخدمونها مع المعتقل علي الفيومي، وتتم عن طريق إدخال منفاخ صغير إلى دبر المتهم، والنفخ فيه حتى يمتلئ بطنه بالهواء، وبعد ذلك يقف أحد الحراس فوق بطنه لتتولد آلام لا تحتمل.

وهناك طريقة أخرى اسمها «التعليقة» وهي عبارة عن خطاف يعلق في أطراف البنطلون، وتمتد حتى سقف الغرفة، ويبقى المتهم في وضع مقلوب عدة ساعات.

ومن الطرق الأخرى إغراق المتهم في برميل مياه مليئة بالقاذورات، حتى يضطر إلى ابتلاع كميات كبيرة منها. وكان «التعطيش» من الأساليب المتبعة في الضغط على المساجين السياسيين للاعتراف أمام حمزة البسيوني.

ويذكر علي عشماوي في كتابه «التاريخ السري للإخوان المسلمين» أنه كان معُلقا ويتم ضربه بالكرباج، وأمامه شمس بدران، مدير مكتب المشير عبد الحكيم عامر، يدعوه للاعتراف، عندما دخل عليهم رجل طويل أبيض له شارب غليظ، وقال له شمس بدران: تفضل يا باشا. وأمسك ذلك الرجل، الذي علم علي عشماوي فيما بعد أنه حمزة البسيوني، برقبته وأخذ يضغط على الحنجرة ضغطات معينة كان من الواضح أنه مدرب عليها، وكلما ضغط قارب الرجل المعلق على الإغماء فيتركه قليلا، وهكذا، وكان العذاب لا يحتمل.

ويحكي «عشماوي» أيضا كيف كان حمزة البسيوني يضربه بالسوط بنفسه، فيلسع به إحدى خصيتيه، فلا يخطئها في كل ضربة كأنه فنان.
ويقول أحمد رائف في كتابه الموسوعي «البوابة السوداء» ساردًا أهوال السجن الحربي الذي أمضى فيه سنوات طويلة: «إن العذاب يبدأ من الإهانة والصفع والضرب بالعصا، ثم يتنوع لنجد المساجين يضرب بعضهم بعضا، ثم هناك الزحف على أربع، وإطلاق أصوات الأغنام، والسير حفاة عراة على ألواح بها مسامير، ثم كنس الأرض من الزجاج بالأيادي العارية. فإذا أصيب أحد بجروح تركوه في العراء حتى يجف جرحه».
ومن أنواع العذاب الأخرى التي يسردها «رائف» أن يتم إيقاف المتهم أو السجين على هاوية معصوب العينين، ويقال له اقفز لقد تقرر إعدامك، فيتمنع ثم يحاولون معه مرة أخرى، حتى يعترف بما يريدون.
لكن أقسى مشاهد التعذيب تلك التي كانت تحكيها زينب الغزالي في كتابها «صور من حياتي» والتي وصلت إلى حد تعرية الإناث وتهديدهن بالاغتصاب.
ومهما كانت درجة صحة تلك المقولات من عدمها، فإنَّه لا شك أن هناك جانبًا من الإجماع على قسوة وعنف الرجل تجاه المساجين العُزل من أي شيء، وكان من الواضح أن رجال حمزة البسيوني جميعا لا يعرفون الرحمة أبدا.

قصة الثورة على البسيوني

وينفرد مصطفى أمين بحكاية غريبة، تشير إلى أن السجن الحربي شهد ثورة غريبة ضد حمزة البسيوني بسبب التعذيب عام ١٩٥٩، وقد وصف تلك الثورة في كتاب «سنة أولى سجن» بكونها أول ثورة للمساجين في الشرق الأوسط، وهي ثورة لم تكتب عنها الصحف كلمة واحدة، ففي يوم شهد مسلسلا متكررا من الإهانات والضرب والعذاب، جلس المساجين لتناول العشاء، وضرب أحد الحراس مسجونا لأنه لم يجلس القرفصاء مثل زملائه، وقال المسجون: إنه مُتعَب ولا يستطيع الجلوس بهذه الطريقة. وفوجئ الحراس بالمساجين يزومون اعتراضا على ضرب زميلهم، فقاموا بضربهم جميعا بالسياط فثار المساجين، واختطفوا الكرابيج والعصيّ من الحراس، واحتجزوا عددا كبيرا منهم داخل العنبر، وأعلنوا استيلاءهم على السجن.
وكان حمزة البسيوني في الإسكندرية في جولة تفتيشية، فاتصل به ضابط أركان حرب السجن، فقال له حمزة: «أطلق الرصاص لتهديدهم، وبالفعل أطلق الرصاص لكنَّه أسفر عن سقوط بعض الضحايا من المساجين، والتهبت المعركة وأغلق المساجين الأبواب، وفشل الحراس في فتحها، إلى أن جاء حمزة البسيوني بنفسه وحاول تهدئتهم دون جدوى، وأصر المساجين على حضور عبد الحكيم عامر بنفسه لرفع الظلم عنهم. واستمر السجن تحت سيطرتهم ثلاثة أيام حتى جاء الفريق على عامر، وقال للمساجين إن المشير في سوريا، وطالبه المساجين بوقف عمليات التعذيب، ووافق عامر وتوقف الضرب والتعذيب لمدة أسبوعين، وبعد ذلك انسحب حرس عامر، وعاد رجال حمزة البسيوني مرة أخرى، وتألفت محكمة عسكرية حكمت على ٤٠ مسجونا بعقوبات قاسية، كانت كلها تدور في إطار التعذيب، حتى إن السجن

كان يشهد كل يوم حالة انتحار، هروبا من التعذيب الذي لا يطاق».

ضحايا بالمئات

إنَّ كثيرين كانوا ضمن ضحايا الجلاد حمزة البسيوني، قُبض عليهم وعذبوا وحقق معهم واعترفوا قسرًا وظلمًا بما لم يفعلوا. وكان بعض الضحايا من الإخوان المسلمين، وكان البعض الآخر من اليساريين، فضلا عن بعض الوفديين. والغريب أن هناك ضحايا كانوا ممن ساندوا الثورة ووقفوا إلى جوارها في البداية، ومات كثيرون داخل أسوار السجن تحت وطأة التعذيب، وتم تحرير محاضر بهروبهم. لقد تعددت الشهادات والروايات حول من قتلوا تعذيبا وأبلغ عن هروبهم، بل وتمت محاكمتهم بعد ذلك والحكم عليهم غيابيا.

وتعد حادثة مقتل إسماعيل الفيومي تحت التعذيب، في السجن الحربي، واحدة من حوادث القتل الشهيرة التي نفذت تجاه مساجين متهمين في قضايا. لقد كان إسماعيل الفيومي ضابطًا في الحرس الجمهوري، وتم اتهامه بالتآمر على قتل عبد الناصر ضمن تنظيم الإخوان المسلمين عام ١٩٦٥.

وتحكي مذكرات الإخوان كيف قتل إسماعيل الفيومي في السجن الحربي تحت التعذيب البطيء. لقد عُلِّق في «الفلقة»، وأخذ الزبانية يضربون ويستريحون، واشترك في ضربه أربعة من جزاري السجن الحربي، هم: سعيد بدوي، صفوت الروبي، محمد رجب محمد بكر، نجم الدين مشهور.

وكان اثنان يتبادلان الضرب واثنان يستريحان، واستمر التعذيب من الصباح حتى هتف المؤذن «اللـه أكبر» لصلاة العصر، عندها لفظ المتهم إسماعيل الفيومي آخر أنفاسه، وصعدت روحه إلى بارئها وهو معلق على «الفلقة» وفي هذه الأثناء مرَّ اللواء حمزة البسيوني، ونظر في رأس الضحية ورقبته مُدلاة من الفلقة، فقال: «الواد مات.. خلاص.. بلغوا عنه فرار».

وجاء عسكريان يحملان جردلين وقطعة من القماش ودخلا زنزانة إسماعيل الفيومي، وبعد فترة خرجوا منها وأطفئت أنوار السجن، وأنزلوا إسماعيل ملفوفًا في بطانية وحملوه في عربة.

ووقتها نشرت الصحف خبرين عن إسماعيل الفيومي، أحدهما من مكتب شمس بدران إلى مكتب الرقابة، ومفاد الخبر الأول هو أن الشرطي إسماعيل الفيومي قد هرب من السجن الحربي، وكان متهمًا في قضايا الإخوان المسلمين.. والغريب أن خبر هروب الفيومي نُشر بالصحف ومعه الجملة التالية «مكافأة مالية لِمَن يُرشد عنه»، أما الخبر الثاني فنشرته جريدة الأهرام أيضا على أنه وارد من جميع وكالات الأنباء، مفاده أن «الشرطي إسماعيل الفيومي قد تمكَّن من الهرب إلى سويسرا»، ولم تكتفِ الصحيفة بهذا الشق من الخبر، بل أوردت أن الشرطي المصري المسكين عقد مؤتمرًا صحفيًّا «بالفرنسية» في جنيف العاصمة السويسرية، وهاجم في المؤتمر المزعوم نظام الحكم في مصر في ذلك الحين.

وهناك قصص أخرى عديدة نشر عن بعضها المستشار محمد عبد السلام في كتابه الشهير «سنوات عصيبة» وكان الرجل نائبًا عامًا في مصر، وقد تلقى عرائض اتهام بالتعذيب لم يستطع تحقيقها بسبب إعفائه من منصبه.

وكان من بين تلك القصص قضية المواطن محمد نظمي سلطان الذي اعتقل في السجن الحربي في فبراير ١٩٦٧، وتعرض للتعذيب بالضرب بالسوط المجدول والوضع في الماء المثلج، ثم التعليق في خطاف بالوضع المقلوب، وهو ما كان يتم بحضور اللواء حمزة البسيوني قائد السجن الحربي.
ومن بين الحكايات التي يوردها المائب العام الأسبق أيضا، أن أربعة مواطنين هم محمود فهمي دياب، وأحمد محمد الروبي، وجرجس إبراهيم سعد، وإبراهيم حسنين بخيت، اعتقلوا في ١٠ يناير ١٩٦٥، وتم اقتيادهم إلى السجن الحربي، وضربوا للاعتراف باختلاس أموال الدولة. ومنها كذلك أن رجال الشرطة العسكرية اعتقلوا المواطن عثمان حسين العوضي، واقتادوه إلى السجن الحربي وعلقوه في فلقة وضربوه بالسوط. كذلك في ٢٧ نزفمبر ١ تم اعتقال أحمد عبد الفتاح نعيم وأحمد حسن العزب، وعُذبا لنفس الغرض، وتُركا في غرفة مليئة بالكلاب ومغمورة بالماء.
كما جاء في التحقيق رقم ٤٠ لسنة ١٩٦٨ أن محمد أحمد الشامي وحافظ داوود قد عُذبا في السجن الحربي، يوم ١٩ يونيو ١٩٦٦، وضُربا بالسياط، وتم إطلاق الكلاب عليهما لحملهما على الاعتراف في قضية رشوة.
ولعل أبشع أنواع التعذيب قد ظهرت ـ كما يقول النائب العام السابق محمد عبد السلام ـ في التحقيقات رقم ٣، و٤، و٥، و٧، و١٤، و٢٠، و٢٧، و٢٨، و٣٤، و٣٦، و٣٩، و٤٥، و٤٦، ٤٧، و٤٨، و٥٤، و٥٨، و٦٦، و٦٧، و٦٨، و٨٦، و٩٢، و٩٦، و١٠٢، و١٠٦ لسنة ١٩٦٨ عريضة تعذيب فيما يخص التحقيق في الجناية رقم ٢١ لسنة ١٩٦٧ المعروفة بقضية كمشيش، حيث تم تعذيب المتهمين باقتلاع أظفارهم وضربهم بالسياط، وإلباسهم ملابس نسائية في السجن الحربي.
ويؤكد محمد عبد السلام أن الخطير في معتقلي قضية كمشيش أن أربعة من المتهمين توفوا بعد خروجهم من السجن، تأثرا بإصابات نتجت عن التعذيب، وهم عبد الحميد شبل، عبد الحميد تعلب، سالم الزرقاني، عبد الغنى أبو رواش.

تلاميذ الجلاد

وتذكر قصص التعذيب أسماء عديدة لمساعدي وتلاميذ حمزة البسيوني الذين استخدمهم لإرهاب ضحاياه في السجن الحربي، وربما أشهرهم الشاويش صفوت الروبي الذي استمر في الخدمة حتى حرب يونيو، وخرج بعدها حاصلا على رتبة الملازم. وقد كانت زينب الغزالي تسميه «الشيطان» لتعمده الضحك وهو يعذب الضحايا.
وهناك الرائد صلاح الششتاوي الذي كان يتفنن في إيذاء المعتقلين، بخاصة من الإخوان، وكان يبتكر كل يوم طريقة جديدة للتعذيب.
وكان من بين تلامذة «البسيوني» كل من يسري الجزار، وحسن عليش، وهما من ضباط المخابرات، وكانا يعملان مع صلاح نصر رئيس جهاز المخابرات، إلا أنهما كانا كثيرًا ما يذهبان إلى السجن الحربي للمشاركة في التعذيب أو الإشراف عليه. وقد اعتبرهما مصطفى أمين ذراعي صلاح نصر، وقال إنهما كانا يشعران بمتعة غريبة وهما يعذبان المساجين.

كما أن العقيد حسن خليل رئيس المباحث الجنائية، التي توازي حاليا مباحث أمن الدولة، كان ضالعا في التعذيب، وكان ممن صدرت ضدهم أحكام لصالح مساجين تعرضوا للتعذيب. إضافة إلى الرائد حسن كفافي، والعقيد محمد عبد المقصود الجنزوري.
وهناك أسماء أخرى ترد في شكاوى التعذيب بالسجن الحربي، خلال قيادة حمزة البسيوني له، مثل الرائد رياض إبراهيم، الرائد أحمد موافي، المساعد سعيد بدوي، المساعد محمد موافي، المساعد محمد رجب، الشاويش رشاد عبد اللطيف، أحمد عبد الحميد، سامبو، محمد خاطر، نجم الدين مشهور.
أما شمس بدران فقد كان أقل في الرتبة من اللواء حمزة البسيوني، وكان يعمل مديرًا لمكتب المشير عبد الحكيم عامر، ويذهب إلى السجن الحربي ليشارك بنفسه في عمليات التعذيب وانتزاع الاعترافات من المتهمين، وكثيرا ما كان يسبهم بأقذع الشتائم طبقا لشهادة السيدة زينب الغزالي، وقد رُقِّي فيما بعد إلى منصب وزير الحربية!
هل كان ملحدا؟
وتتعدد الروايات بشأن امتهان اللواء حمزة البسيوني للدين، وكراهيته الشديدة لكل ما هو له علاقة بالأخلاق العامة أو الدين، وقد دفع ذلك بعض المعتقلين من الإخوان ومناصريهم إلى اعتبار الرجل كافرا، وقد وصل الأمر بالشيخ عبد الحميد كشك إلى أن يصف حمزة البسيوني في إحدى خطبه بـ«الكافر النجس»، وبعيدًا عن صحة ذلك من عدمها، فإننا سنشير إلى بعض الوقائع التي تدلل على موقف الرجل من الدين.
يحكى أحمد أبو شادي، أحد أعضاء الإخوان الذين ذاقوا مرارة دخول السجن الحربي، في رواية نقلها عنه المحامي الشهير ثروت الخرباوي في مقال له بجريدة «المصريون» أن اللواء حمزة البسيوني منع جميع المساجين في أحد الأعوام من صلاة القيام في رمضان، وهدد من يتم كشفه وهو يصلي بأنه سيتعرض لتعذيب وتنكيل لا طاقة له بهما.
وقد شاعت قصة نقلها البعض على لسان مصطفى أمين، خلال فترة وجوده بالسجن الحربي، وهي أنه قال لجلاديه «إن هذا لا يرضي اللـه» فقال له حمزة البسيوني «لو جاء اللـه لحبسته إلى جوارك». وقد رجعت إلى كتب مصطفى أمين التي حكى فيها سجنه ولم أجد القصة منسوبة لحمزة، وإنما كانت منسوبة لأحد الضباط الذين كانوا يعذبونه في سجن المخابرات.
ومما يؤكد أن تلك الحكايات تحمل كثير من المبالغات، أنها وردت أيضا في مذكرات زينب الغزالي المعروفة بـ«صور من حياتي»، ولكنها وردت منسوبة لشمس بدران. وتقول صاحبة كتاب «الصور» أنها علقت وتم جلدها خمسمئة جلدة، وكانت تصيح «يااللـه. يااللـه» فقال لها شمس بدران «أين هو اللـه الذي تنادينه؟ لو كان موجودا كان نفعك»!
وواضح من الإشارات السابقة أن حمزة البسيوني، بما عرف عنه من ظلم وسادية وجبروت وقسوة، كان أميَل للانحراف عن الدين، وهو انحراف يعبر عن

جهل وقسوة، لكنه لا ينبغي أن يدخل في باب الكفر والإلحاد. إنه من المقبول تاريخيًا أن نصف بعض الجلادين بالقسوة والظلم وحب الدماء والسادية، لكن لا يلزم ذلك التجاوز لإطلاق وصف «الكافر» على حامل تلك الصفات.

السجان يتحول إلى سجين

لقد ترقى حمزة البسيوني سريعًا، وصعد من رتبة رائد عام ١٩٥٢ إلى لواء بداية الستينات من القرن الماضي، قبل أن يحصل على رتبة الفريق قبل حرب ١٩٦٧. ويحكي المساجين السياسيون أنه خطب في السجن الحربي قبل النكسة بأيام، وقال إنه هو القانون والدستور، وإنه هو الآمر الناهي، وإنه يحيي ويميت. وبعد أيام من النكسة صدرت قرارات تصفية رجال عبد الحكيم عامر في مصر، وصدر قرار بإحالة البسيوني إلى المعاش، ثم القبض عليه والتحقيق معه فيما هو منسوب إليه من انحرافات.

وقد بقي «البسيوني» في السجن عامين، إلا أنه لم يحاكم لأنه ـ طبقا لرواية مصطفى أمين ـ كان يحدد اسم الشخص الذي أمر بتعذيب كل حالة من حالات التعذيب، ووجدت وقتها سلطات التحقيق أن محاكمته ستفتح ملفات أناس كبار لا يزالون في السلطة، منهم شعرواي جمعة رجل المخابرات ووزير الداخلية، وسامي شرف رئيس مكتب الرئيس عبد الناصر، وزكريا محيي الدين، وغيرهم.

ويقول الكاتب الصحفي صلاح عيسى، الذي التقى حمزة البسيوني وهو مسجون في سجن القلعة: «كان حمزة البسيوني هو الشخصية الثانية البارزة التي رأيتها في سجن القلعة، عندما عدت إليه للمرة الثانية في ربيع ١٩٠، وكانت تهمتي هي المشاركة في مظاهرات طلاب الجامعة التي خرجت في ذلك الربيع، تحتج على هزيمة ١٩٦٧، وتطالب بالكشف عن المسؤولين عنها وتهتف (وديتو فين فلوسنا.. واليهود بتدوسنا)».

ويضيف قائلاً:

«كنت أتلصص ـ كالعادة ـ من ثقب زنزانتي رقم ٣ بمعتقل القلعة، وكان الزمن يوما من بداية صيف ١٩٦٨ إذ شاهدت رجلاً وقورًا شعره أبيض كالثلج، يتهادى في الممر في طريقه إلى مكاتب الإدارة، وخلفه أحد المخبرين، وكان الرجل يحاول أن يستشف ما وراء أبواب الزنازين المغلقة، وصاح المخبر فيه: بص قدامك يا سيد.. فامتثل في رعب للأمر، وحث خطاه حين مر أمام زنزانتي فلم تُتَحْ لي رؤيته، وبعد ساعتين من الانتظار مر الرجل أمام باب زنزانتي، وكان واضحًا أنه استُدعي لكي يلتقي زوارًا جاءوا لزيارته في السجن، إذ كان يحمل أكياسا من الفاكهة يقضم واحدة منها وخلفه المخبر يحمل حقائب وأكياسا متعددة.. وفي هذه المرة استطعت أن أتبين ملامحه لأكتشف أن له شاربًا ناصع البياض، مشذبًا بعناية، وبمادة مقواة، وكان ذلك كافيا لكي يطمئن قلبي، لأن أبي لم يكن ـ منذ شبابه ـ يربي شاربه! فيما بعد رأيت الرجل العجوز كثيرًا، ذات ظهيرة انتهز فرصة مروره أمام زنزانتي، متقدما عن المخبر الذي كان مرتبكا لثقل ما يحمله من أمتعة، ليقول لي بصوت هامس: أنا اللواء حمزة البسيوني.. إنت مين؟ وقبل أن أفيق من دهشتي، دهمنا

صوت المخبر، وهو يصيح فيه: وبعدين.. امشي من سكات، فإذا به لذهولي الشديد يستجيب للإنذار بخوف، وهو يحاول أن يُرضي المخبر بكلمات نفاق».
ويضيف صلاح عيسى:
«بطريقة الفوتو مونتاج في الأفلام السينمائية، تتابعت على شاشة رأسي صور خاطفة لمشاهد مما سمعته من المعتقلين عما فعله بهم حمزة البسيوني، سياط تمزق جلودا وصفعات تصافح أصداغا، وقبضات تعوج أفكاكا، وأجساد تسحل بحبال خشنة على أرض صخرية، أو تسحب رجال من خصيِّهم. يا ألطاف اللـه الخفية، أهذا الرجل ذو الوجه الطفولي البريء الذي أحببته وأعتبره صورة من أبي هو اللواء (حمزة كينج كونج) الذي يزدحم ملفه بكل تلك المشاهد التي لا يتحمل أي إنسان مجرد رؤيتها، فكيف تحملها الذي أوقعت به، وكيف استطاع الذي فعلها أن يفعلها، ثم أين ذهبت هذه القسوة؟ والرجل الذي كان إلى شهور قليلة مديرا للسجون الحربية، ما كاد يتحول إلى سجين حتى أصبح كالفأر المذعور، لا يستطيع أن يعامل مخبرا صغيرا، كان على قمة الهرم الذي يجلس إليه مئات من أمثاله في سطحه، إلا بذلك القدر الكبير من التذلل والضعف».
ويحكي الشاعر أحمد فؤاد نجم، في مذكراته التي نشرتها جريدة «اليوم السابع» عام ٢٠١٠، أنه قابل حمزة البسيوني في السجن وكان كثير من المساجين يسبونه ويضربونه وهو يتعامل معهم كالفأر. ويدعي «نجم» أنه ضربه بنفسه وسبه في دورة مياه السجن! ويقول إنه رآه يتوضأ للصلاة فقال له «إنت فاكر ربنا هيسيبك تدخل الجنة؟».
وينقل مصطفى أمين قصة أخرى لا شاهد آخر لها، تقول إن حمزة البسيوني كان في زيارة أحد أقربائه في السجن بعد الإفراج عنه، وشاهده فجرى عليه وأخذ يحاول تقبيل يديه ويقول له: سامحني، أنا كنت أطيع الأوامر. وقال له مصطفى أمين: لو سامحتك مَن يسامحك على قتل العشرات ودفنهم في الصحراء، وتعذيب الآلاف وتلفيق الاتهامات لهم؟ فقال: أنا عبد المأمور. ولو صحت هذه الواقعة فإنها تتشابه مع بعض ما ورد بشأن اعتزال البسيوني للحياة العامة، وخوفه من انتقام بعض من قام بتعذيبهم، وإخفائِه شخصيتَه عن الناس.
ورغم كل ذلك فقد رآه نجيب محفوظ على أحد مقاهي العباسية في نهاية الستينات. يحكي جمال الغيطاني في كتابه عن نجيب محفوظ ما يلي: «ذات يوم رأينا شخصا أبيض البشرة، أبيض الشعر، متوسط القامة، عيناه غريبتان، كأنهما مقلوبتان إلى الخارج، وأصابع يده نحيلة، مدببة المقدمة، كأنها مخالب الطيور، عندما دخل إلى المقهى ساد صمت غريب. وأسرع الجرسون بإحضار نرجيلة وضعها بجواره، وفرد أمامه الشطرنج، وبدأ أحد الجالسين يلاعبه، وسألني محفوظ: من هذا؟ فسألت الجرسون بدوري، فأجاب: هو حمزة البسيوني مدير السجن الحربي السابق. فاتسعت عينا نجيب محفوظ وولدت وقتها رواية «الكرنك» التي تم تمثيلها فيلما سينمائيا، قام ببطولته نور الشريف وسعاد حسني، وأدى دور حمزة البسيوني فيه الفنان كمال

الشناوي.

نجم سينمائي

فيما بعد شاعت قصص التعذيب، ووجد كثير من الروائيين في شخصية حمزة البسيوني تمثيلا دقيقا لشخصية الجلاد السادي الذي لا يكترث بالآلام والصرخات والدماء، ويدوس على الأخلاق لخدمة سادته. في تلك الأثناء كتب الأديب نجيب الكيلاني روايته «رحلة الأخوين إلى اللـه» وتحدث فيها عن السجن الحربي واختار قائده شخصا فظا بلا دين، هو عطوة الملواني، الذي يستمتع وهو يعذب ضحاياه.

وكتب فاروق صبري فيلمًا سينمائيا بعنوان «إحنا بتوع الأتوبيس» عن واقعة حقيقية حكاها جلال الدين الحمامصي في كتابه «حوار خلف الأسوار» وقد قام ببطولته كل من عادل إمام وعبد المنعم مدبولي، وظهرت شخصية حمزة البسيوني في السجن باسم «رمزي» ومثل دوره الفنان سعيد عبد الغني، والذي مات في نهاية الفيلم نتيجة ثورة السجناء عليه؛ بعد قتله لأحد المعتقلين خلال التعذيب.

كما كتب حسن محسب قصة فيلم «وراء الشمس» عام ١٩٧٨، بطولة شكري سرحان ورشدي أباظة ونادية لطفي، ويظهر مدير السجن الحربي في الفيلم بشخصية «الجعفري» التي يجسدها رشدي أباظة. وقد تم منع عرض ذلك الفيلم نظرا لاحتوائه على مناظر تعذيب بشعة، ولحساسية القضايا التي يناقشها.

وكتب وحيد حامد أيضا فيلمه الرائع «البريء» الذي قام ببطولته أحمد زكي وممدوح عبد العليم، وأخرجه المخرج العظيم عاطف الطيب، وقد ظهر حمزة في الفيلم بشخصية الضابط شركس، الذي جسده الفنان محمود عبد العزيز، وظهر ساديًا يحب تعذيب المتهمين ويطلق عليهم الأفاعي والكلاب، ويسمي جميع المعتقلين السياسيين بأعداء الوطن. بينما يظهر نفس الضابط مع أسرته كشخصية لطيفة تحب الأطفال وتلعب معهم وتضحك، وتتعامل معاملة جيدة مع الأصدقاء والأقارب!

نهاية درامية

ظل الفريق حمزة البسيوني غائبًا عن الإعلام والأضواء بعد خروجه من السجن، وتناساه الناس عدا ضحاياه الذين أصيب بعضهم بعقد نفسية، وأصيب البعض الآخر بعاهات جسدية، وأصر البعض على طلب القصاص منه، بينما قال كثيرون إنهم سامحوه.

وفي يوم ١٩ نوفمبر عام ١٩٧١، وكان موافقًا أول أيام عيد الفطر المبارك، كان حمزة البسيوني مسافرًا من الإسكندرية إلى القاهرة، ومعه شقيقه راكبًا إلى جواره، واصطدمت سيارته بإحدى السيارات المحملة بحديد مبانٍ، ومات حمزة وشقيقه وتعرضت جثته لتشويه غريب نتيجة دخول عدد من الأسياخ الحديد فيها.

وينقل لنا الكاتب والمحامي ثروت الخرباوي، عن أحد مستشاري محكمة

الاستئناف السابقين، ما حكاه بشأن مُعاينته لجثة حمزة البسيوني، إذ يقول عن الحادثة: «كانت حادثة مروعة، وكنت وقتها رئيسًا لإحدى النيابات في محكمة كلية، وخرجنا أنا وزميل لي في مهمة قضائية لمعاينة الحادث ومناظرة الجثة.. دلت المعاينة وشهادة الشهود على أن سائق السيارة القتيل كان يقود سيارته بسرعة غريبة، وكانت أمامه سيارة نقل مُحملة بأسياخ الحديد التي تتدلى من مؤخرة السيارة، ودون أن يتنبه استمر في سرعته حتى اصطدم بالسيارة النقل، وحينها اخترقت أسياخ الحديد ناصية القتيل ومزقت رقبته، وقسمت جانبه الأيمن حتى انفصلت كتفه عن باقي جسده»، وبتأثر واضح قال المستشار خيري: «لم أستطع مناظرة الجثة، فقد وقعت في إغماءة من هول المنظر، وقام زميلي باستكمال مناظرة الجثة».

ويحكي «الخرباوي» أيضا في مقال له بعنوان «لنسفعن بالناصية» في جريدة «المصريون» واقعة أخرى هو شاهدها الوحيد، يقول فيها «في عام ١٩٧٨، وكنت وقتها طالبا بكلية الحقوق جامعة عين شمس، جمعتني أروقة الجامعة بالعديد من الأصدقاء، منهم من كان ينكب على مناهج الدراسة وحضور المحاضرات، وهؤلاء كنا نطلق عليهم اسم (شلة البؤس) ومنهم من كان مثلي يتنقل بكل كيانه بين الأنشطة ومجلات الحائط واللجان الطلابية والأسر والمظاهرات، وقد كان الفريق الآخر يطلق علينا اسم (شلة الأنس) أما الشلة بفريقيها فقد كانت مشهورة في الجامعة آنذاك باسم (شلة النمس)! ولا أعرف سببا لهذه التسمية التي جعلت شلتنا ذائعة الصيت، وعندما يدخل الصيف وننتهي من امتحاناتنا كنا نحمل أمتعتنا ونذهب معا إلى مدينة الإسكندرية، نقضي بها أسبوعا أو أسبوعين، لا نحمل إلا قروشا قليلة، لكننا كنا بها نملك الدنيا بأسرها، وليس يهم بعد ذلك أن نتطفل على أحد الأصدقاء من أهل الإسكندرية، فنبيت عنده ليلة ونقضي عنده يوما أو بعض يوم، ثم نتطفل على بعض الأقارب يوما أو بعض يوم.. المهم أننا كنا لا نحفل أين ننام.

وفي هذا الصيف الذي أحدثكم عنه حطت بنا الرحال عند صديقنا مجدي الإسكندراني، وهو أحد أصدقاء الشلة، حيث كان سكنه الأصلي في منطقة سيدي بشر، عند شارع خالد بن الوليد، في عمارة صغيرة يمتلكها والده ـ رحمه اللـه وكان في أثناء العام الدراسي يقطن في منطقة الزيتون بالقاهرة، في شقة تمتلكها أسرته، حيث كان والده منذ عهد جمال عبد الناصر يشغل وظيفة حساسة بمؤسسة الرئاسة.

وفي شقة صغيرة من شقق العقار المملوك لأسرة صديقنا مجدي بسيدي بشر، كانت إقامتنا، وكانت هذه الشقة في الأصل يقيم فيها محيي شقيق مجدي، والذي كان طالبا وقتها في كلية طب الإسكندرية، وكان قد أعد هذه الشقة ليستذكر فيها دروسه هو وأصدقاؤه من طلبة الطب، وكنا نعلم أنه جعل من إحدى حجرات المنزل مشرحة متكاملة يستجلب فيها جثامين بشرية، أو بعض أجزاء من جثث، لغرض التشريح الطبي والاستذكار عليها».

ويضيف «الخرباوي» قائلاً:

«وفي اليوم الأول لإقامتنا، كانت هناك مباراة دولية في كرة القدم في نهائي

كأس العالم، وجلسنا نشاهد المباراة في الوقت الذي كان فيه محيي شقيق مجدي يصطاد ـ كعادته بعدة الصيد ولباس الغوص فقد كان محترفا في ذلك ـ السمك الذي سيكون طعامنا في الغداء والعشاء... كانت مباراة الكرة محتدمة وكانت الأنظار معلقة على جهاز التلفزيون، وكان بعضنا شرها في شرب السجائر، وكان لا يني يطفئ سيجارة في عقب سيجارة ويضع ما يتبقى من أعقاب السجائر في منفضة (مطفأة سجائر) غريبة الشكل والتكوين، موضوعة على منضدة جانبية، ولسبب لا أعلمه حانت مني التفاتة لهذه الطفاية وأخذت أتفرس فيها، ثم قفزت صارخا وجسدي يرتعش، فقد كانت تلك المنفضة (المطفأة) قطعة من جمجمة بشرية. ومن دون أن أتكلم أشرت إلى مطفأة السجائر وعندما نظر الأصدقاء إليها بإمعان قفز صديق لنا يدعى عز الدين (وهو الآن مستشار بمحكمة النقض) وخرج من الغرفة فزعًا مسرعا لا يلوي على شيء، إلا أن مجدي أعاده مرة أخرى وقال لنا متعجبا من فزعنا: ما الذي أصابكم؟! هذه مجرد جمجمة من جماجم محيي التي كان يستجلبها لدروس التشريح، وقد قام بتوضيبها وقسمها قسمين، بحيث جعل من هذا القسم مطفأة للسجائر، وأعطى النصف الآخر لصديق له جعلها إناء وضعه في قفص للعصافير! كان من الطبيعي أن تتعكر أمزجتنا، إذ كانت أعوادنا ما زالت طرية لم نألف الموت. وفي المساء انفردت بمحيي، وكان الرفاق يقضون وقتهم في بعض ألعاب التسلية، وسألته عن خبر هذه الجمجمة، فقال لي: سأصدقك القول وسأخبرك بما لا يعرفه أحد من أهل البيت هنا.. هذه جمجمة لأحد أكابر المجرمين الذين كانوا يعذبون الناس في السجون في الخمسينات والستينات، وقد مات هذا الرجل منذ فترة ليست بالبعيدة وتم دفنه في قريته التابعة لإحدى مراكز محافظة الغربية، وكنت قد اتفقت مع المقاول الذي يقوم بتوريد الجثث لكلية الطب كي يستجلب لي جثة أذاكر عليها أنا وزملائي، فقال لي إن لديه جثة بالفعل، وكان قد عرضها على كلية الطب ولكنهم رفضوها لأنها ممزقة كل ممزق، ويكاد رأسها ينفصل عن جسدها، فضلا عن فقدها لبعض الأجزاء، إضافة إلى أن الجمجمة نفسها مليئة بالكسور، وعندما سألته عن صاحب هذه الجثة قال لي إنه أحضرها من أحد رجاله الذين يُحضرون له الجثث من قرية تابعة لأحد المراكز بمحافظة الغربية، وإنه علم أنها لذلك الجبار الذي قصمه اللـه ومات في حادثة بشعة تحدثت مصر كلها عنها. واسترسل محيي قائلا: بعد أن علمت أن هذه جمجمة هذا الطاغية جعلت من نصفها مطفأة سجائر كما ترى، أما صديقي فلان، وهو من قيادات الطلاب بجامعة الإسكندرية، فقد جعل من النصف الآخر إناء ماء وضعه في قفص للعصافير، إلا أن العصافير للعجب الشديد عزفت عن الشرب منه وجعلته موضعا تقضي حاجتها فيه بغير توجيه أو تدريب، وسبحان اللـه، وللـه في خلقه شؤون».

تلك قصة الرجل الأقسى والأعنف في تعذيب المصريين، أما السجن الحربي فقد تم هدمه سنة ١٩٩١ لإنشاء صالة الألعاب الأوليمبية مكانه في مدينة نصر، وقد قام صحفيون بجريدة «الوفد» بمغامرة لزيارة السجن خُفيةً قبل

هدمه، وتصوير بعض زنازينه، وكتب الكاتب الصحفي سيد عبد العاطي مُستعرضًا تلك المغامرة: «السجن كئيب المنظر، مخيف، تفوح منه رائحة تزكم الأنوف وتصيب بالغثيان، دخلت زنازن هذا السجن واحدة وراء الأخرى، أخذت أبحث بداخلها عن تلك العبارات التي سجلها المعتقلون السياسيون بدمائهم على الجدران، كان أقواها عبارة تقول (كل العالم بدران)، وعبارة أخرى تقول (لكل ظالم نهاية)، وأخرى تقول (دولة الظلم ساعة)».

المنافقون والمصفقون

«ما شئت لا ما شاءت الأقدارُ.. فاحكم فأنت الواحد القهار»

الشاعر ابن هانئ مادحًا الخليفة

الانحناء مُر، كما يقول الشاعر الراحل أمل دنقل، لكنَّه مُعتاد ومُتكرر، بخاصة من أولئك الذين يكتبون ويُبدعون. مُنذ ولدت الدولة في العالم، والكلمة أداة من أدوات استتباب الأمن وصناعة المجد. والكلمة قد تكون كاشفة وواعية، ولكنَّها قد تكون راقصة مُستهدفة مصالح ذاتية.
وقراءة سريعة لنصوص الكتابات المصرية القديمة على المعابد، تغمسك في بحار من الدهشة حول تقديس المصريين القدامى لحكامهم، وتأليههم لبعضهم. واللافت أن تلك الكتابات استمرت وتنوعت وتلونت بألوان عديدة بين الشعر والشكر والدعُاء، ومن يطالع أرشيف الصحافة المصرية في العصر الحديث يُذهل من كم التزلُف والنفاق من شخوص تحولت من نظام إلى نظام، ومن حاكم إلى آخر، في سلاسة ومهارة.
إنَّ مُبدعين ومُثقفين كُثر وقعوا في براثن إرضاء الحُكام والتزُلف للُسلطة، وبقيت بصماتهم شاهدة على نصوص وصلتنا أقرب للمدح الرخيص. وهكذا صنعنا أبطالاً من كلمات، ورموزًا من هواء، وعُظماءً من قتلة وجُهلاء. وحسبُنا أنَّنا ما زلنا نؤمن بفكرة الزعامة رغم سقوطها في جميع دول العالم. فالحاكم في بلادنا نِصف إله لا يخطئ ولا يسيء التصرف، بينما ترى الشعوب الناهضة حُكامها أُجَراءً، ورؤساءهم خدمًا وموظفين لدى الشعب، لا يملكون حياتهم لأنَّهم أنفسهم ملك للجماهير التي اختارتهم، والتي عليها أن تُشغّلهم وتُوجِّههم.
والواضح أن مَرَدّ ذلك أن جانبًا كبيرًا من الثقافة العربية قامت على مدح السُلطة والانحناء للحكام والتقرب منهم لنيل عطاياهم، فهذا مثلاً الشاعر الأندلسي ابن هانئ يمدح الخليفة بأبيات شعر تقارب بينه وبين الآلهة أو الرسل المبعوثين، إذ يقول في إحدى قصائده:
«ما شئتَ لا ما شاءت الأقدارُ/ فاحكم فأنت الواحد القهارُ/ وكأنما أنت النبي محمدٌ/ وكأنما أنصارك الأنصار».
ويكتب أبو نُواس في ذل يستعطف الخليفة ألا يعاقبه إن خرجت منه كلمة عن غير قصد تضايقه: «بك أستجير من الردى وأعوذ من سطوات باسك/ وحياة راسك لا أعود لمثلها.. وحياة راسك/ فإذا قتلت أبا نُواسِكَ من يكون أبا نُواسِك؟». ويقول أبو نواس في مدح الخليفة الأمين ما يقربه من الآلهة: «وأَخَفْتَ أهل الشِرْكِ حتى إنه/ لَتَخافُكَ النُطَفُ التي لم تُخْلَقِ».
ويذهب الشاعر جرير بن عطية إلى الجلاد الأشهر والأمير الظلوم الحجاج بن يوسف الثقفي، فيمدحه بقصيدة طويلة يعتبر فيها أعمال سفك الدماء وقطع الرقاب التي يقترفها الحجاج تنفيذا لحكم اللـه في الضحايا، فيقول: «ترى نصر الإمام عليك حقا/ إذا لبسوا بدينهم ارتيابا/ تشدُّ فلا تكذبُ يومَ زحفٍ/ إذا الغمراتُ زَعزَعَتِ العُقَابَا/ عفاريت العراق شفيت منهم/ فأمسوا خاضعين لك الرقابا/ وقالوا لن يجامعنا أمير/ أقام الحق واتبع الكتابا».
أما في ثقافتنا الحديثة، فنجد كثيرا من نصوص النفاق والتزلُف البغيض، سواء في قصائد الشعر أو مقالات الرأي أو مانشيتات الصُحف. ولأن ماكينة الطباعة سجلت لنا آراء وشهادات كثير من المُثقفين، في طُغاة ومُستبدين، فإن

الإفلات من محكمة الضمائر صعب، فالكلمات في زمن التكنولوجيا الرقمية مُسجلة والمواقف لا يُمكن إنكارها.

قصيدة ٩٩ بيتا

ويحكي الكاتب الكبير يحيى حقي في كتابه «خليها على اللـه» قصة الشيخ أبي النصر، شاعر منفلوط الشهير، الذي انتهز زيارة الخديو توفيق للمدينة ووقف بين يديه مُنشدا قصيدة طويلة في مديحه، ويبدو أن الخديو تعب من الوقوف لسماع القصيدة التي بسبب طولها ملَّ الحاضرون، فسأل الشيخ عن عدد أبيات القصيدة فردَّ بأنها ٩٩ بيتا، فسأله عن سر عدم إتمامها مئة بيت، فرد الشيخ المنافق بأنه البيت الذي سيضيفه أفندينا، ففهم الخديو مغزى ذلك، وأمر ببناء بيت كبير ومنحه للشيخ على الفور.

وربما كانت المدائح دفعا إلى استبداد كثير من حكام الشرق، فهذا مصطفى كمال أتاتورك الضابط التركي الذي يُحرر تُركيا من براثن الخلافة يحقق انتصارا في حرب تركيا واليونان، فيكتب عنه أحمد شوقي، أمير الشعراء، قصيدة عصماء يقول فيها: «اللـه أكبر كم في الفتح من عجبِ/ يا خالد الترك جدد خالد العربِ» ولا يلبث أن يتحول «أتاتورك» إلى ذئب طاغ وينقلب على دولة الخلافة، ويعدم جميع معارضيه ويتحول إلى مُستبد كبير.

مديح الأسرة الحاكمة

ويكتب أمير الشعراء في ذم البطل العظيم أحمد عرابي إرضاء للخديوي عباس حلمي فيقول: «صغارٌ في الذهابِ وفي الإيابِ/ أهذا كل شأنك يا عرابي؟». وتمر السنوات ويشاء اللـه أن يسترد أحمد عرابي حقه بعد عقود من وفاته، لأنه لم يذهب من مصر صاغرا ولا عاد إليها بعد سنوات المنفى صاغرًا.

وهذا الشاعر علي الجارم يكتب، في إحدى قصائده، عن مولد الملك فاروق كأنه مولد النبي عليه السلام فيقول: «أيُّ يومٍ سَعِدَتْ مصرُ به/ كان في طَيِّ الأماني حُلُمًا/ مولد الفاروق يومٌ بَلغَتْ/ رايةُ الإسلامِ فيه القِمَمَا». وكان طبيعيا بعد ذلك أن يصبح فاروق ملكًا فاسدًا ضعيفًا لا يعنيه الشعب ولا يهتم بأمره.

ويكتب الشيخ محمد متولي الشعراوي فور تولي فاروق، قصيدة عصماء يرثي فيها الملك الراحل فؤاد، ويُهنئ فيها الملك الجديد فاروق فيقول: «أيا فاروق إن بك العزاء/ لمصر وفي جلالتك الرجاء/ فأنت لمصر سلوتها إذا ما/ تمطى ليلها بثق الضياء/ فصبرا يا مليك النيل صبرًا/ فما حي يهادنه الفناء/ أبوك وإن غدا بالخطب ميتًا/ فإن له من الذكرى بقاء»، إلى أن يقول بعد ذلك «بكم للدين يا مولاي فألٌ/ فحقق ما تُرجيه السماء».

ولا نعجب أن نرى للشيخ ـ رحمه اللـه قصيدة في مدح عبد العزيز بن سعود، عندما كان ضمن البعثة المصرية في الحجاز.

وقد غنى الموسيقار محمد عبد الوهاب أغنية «الفن» التي كتبها الشاعر صالح جودت، ومدح فيها الملك فاروق ببعض أبياتها، وعندما قامت ثورة يوليو

حذف ذلك المقطع من الأغنية.
وكان من اللافت أن ذلك الموسيقار العبقري ساهم بشكل غير مباشر في صناعة طغاة النيل، فغنى بصوته للملك فاروق، ولمحمد نجيب، وعبد الناصر والسادات. وبنفس القدر كتب صالح جودت، وهو بكل أسف شديد واحد من أهم المبدعين العظام، قصائد عديدة تغنَّى فيها بالملك فاروق، وبعبد الناصر، وبالسادات.
ومَن يُطالع صحافة مصر في الأربعينات يستغرب كم التدني الذي أبداه البعض حُبا وولها وتعظيمًا وتفخيما للملك فاروق، فلما رحل أطلقوا عليه صفات الملك الفاسد وزير النساء ولاعب القمار واللص، ثُم صوروه بمغتصب النساء، والمُعتدي عليهُن. إن واحدًا من الموضوعات الشائعة التي تُطالعنا بها مجلة الاثنين في أحد أعدادها، موضوع على صفحة كاملة يحمل عنوان «السيد الفاروق مليك مصر والسودان ـ ثبوت نسب جلالته إلى السلالة النبوية الشريفة». وفي متن الموضوع نقرأ الآتي: «تشرف بمقابلة حضرة صاحب الجلالة مولانا الملك المعظم بقصر القبة العامر في الساعة الخامسة مساء أمس، فضيلة السيد محمد الببلاوي، نقيب الأشراف، وسعادة حسين الجندي باشا، وزير الأوقاف السابق، ورفعا لجلالته تقريرا عن تحقيق نسب جلالته، والقرار الذي اتخذته نقابة الأشراف بهذا الشأن». وتضمن الموضوع تقصّيًا لاتصال نسب الملك فاروق بالنبي عليه الصلاة والسلام.
وفي الصحافة القديمة إعلانات لا حصر لها تُقدم التهاني والأماني للمليك المفدى، وبعض تلك الإعلانات من مشاهير المال في ذلك الوقت، مثل صيدناوي وموصيري والرشيدي وغيرهم. ومن المُثير للسخرية أن تتضمن مجلة الدعوة، الصادرة عن جماعة الإخوان، في إصدارها الأول بداية الخمسينات، تهنئة للملك فاروق بُعَيْدَ جلوسه على العرش، في الصفحة الأولى من المجلة، قبل قيام ثورة ٢٣ يوليو بأيام قليلة.
ومن الوقائع الطريفة أن شركة الصابون الشهيرة «نابلسي شاهين» قامت بإطلاق اسم نابلسي فاروق على الصابون المنتج لديها فور توليه عرش البلاد رسميًا سنة ١٩٣٧، وبعد يومين من طرد الملك في ٢٦ يوليو ١٩٥٢ نشرت الشركة إعلانا في الصُحف تضمن اسم «نابلسي فاروق شاهين» وشطبت فيه على اسم فاروق، ثم قالت: «في الساعة السادسة مساء يوم ٢٦ يوليو تم شطب اسم فاروق من تاريخ مصر إلى الأبد، بعد أن أيقن الشعب والجيش الباسل بأن فاروق قد تغير فأصبح حربًا على كيان مصر وخطرًا على مستقبلها، ولذلك نحّوه عن حكم مصر، ومحوا اسمه من كل مكان. ونابلسي شاهين الذي كان قد قرن اسمه باسم فاروق، يسعده اقتداء بالجيش وبدافع من وطنيته أن يقذف باسم فاروق، وأن يحمل اسمه من اليوم: «نابلسى شاهين».

حليم وناصر

أما الرئيس عبد الناصر، فقد ساهمت الآلة الإعلامية الحصرية التي شكلتها ثورة يوليو في تحويله من ضابط إلى سياسي، ثم إلى زعيم ثم إلى «آخر

الأنبياء العرب» على حد زعم الشاعر نزار قباني. وقد تسابق الفنانون والشعراء على تقديم أغانٍ في تمجيده، استأثر بغناء الغالب منها عبد الحليم حافظ، وكانت سببا في احتلاله قمة الغناء في مصر، رغم أنه لم يكن المطرب الأفضل، لكنه كان الأذكى بتعبير الكاتب مفيد فوزي في كتابه الشهير الذي ألفه عنه بعنوان «صديقي الموعود بالعذاب».

وغنَّى عبد الحليم حافظ لعبد الناصر أغنية «صورة» مُعتبرا إياه كمال الصورة، ثم كرر اسم عبد الناصر في معظم الأغاني الوطنية مثل «ذكريات» و«السد العالي» و«ناصر يا حرية» و«فوازير»، وهو ما دفع الموسيقار كمال الطويل إلى مخاصمة حليم تماما حتى لا يشارك في تلحين أغاني تمجيد شخصي. ووصلت الحال بالعندليب الأسمر إلى أن يُغني في إحدى أغانيه كلمات يقول فيها «أحلف بجمال» كأنه إله يُمكن القسم به.

وكانت مدائح الصُحف للزعيم الشاب جمة، لدرجة أن كثيرا من الكُتاب والمُثقفين تحولوا بأنفسهم إلى رُقباء ذاتيين، حتى لا تمر من بين أيديهم كلمات يُمكن أن تؤول في خانة الانتقاد. وقد كشف جانبًا من ذلك الكاتب الراحل فتحي غانم في كتابه الهام «معركة بين الدولة والمثقفين» والذي يرسم الخطوط العريضة لدولة الخوف والتزلُف، بخاصة أن وسائل مُعاقبة الخروج عن القائد العام تتراوح بين الضرب والإهانة، مثلما حدث مع السنهوري باشا في مجلس الدولة، وقد تتخطى ذلك إلى الإعدام مثلما حدث مع سيد قطب، الذي كان يوما من الأيام صديقا مُقربا من عبد الناصر ومدافعا عن ديكتاتوريته.

وفي الواقع لم يكن عبد الناصر إلا حاكمًا شابًا محدود الخبرات، واسع الأحلام والطموحات، أصاب في أمور وأخطأ في غيرها، لكنَّه عاش يقينا فكرة الزعيم الملهم والقائد المثالي، واتضحت نرجسيته بشكل مبكر في ميدان المنشية بالإسكندرية عام ١٩٥٤، عندما أطلق عليه عامل من الجهاز السري للإخوان يدعى محمود عبد اللطيف رصاصًا فأخطأه، لكنه استغل الموقف، وصرخ في الميكروفون أمام الجماهير المحتشدة: «إذا مات جمال عبد الناصر فكلكم جمال عبد الناصر»، ثم خرجت منه عبارات عفوية كشفت إحساسه وتصوره عن نفسه عندما قال «أنا جمال عبد الناصر الذي علمتكم العزة والحرية والكرامة».

الطاووس

أما السادات، فرغم انحنائه لتمثال عبد الناصر أوائل حكمه، وقراراته الإصلاحية، فإن اتساع قدر التصفيق له بعد الحرب والسلام حوله إلى «طاووس» بتعبير الدكتور محمود جامع في كتابه الشهير «عرفت السادات»، وكان كثيرًا ما يُردد أنه آخر الفراعنة العظام. وإذا كان عبد الحليم حافظ قد غنى لناصر كثيرًا، فإنَّه غنَّى أيضا للرئيس السادات الأغنية الشهيرة «عاش اللي قال الكلمة بحكمة في الوقت المناسب» وهي أغنية ركيكة الكلمات ولا تحمل أي تصوير إبداعي، وقد نقل البعض أن كمال الطويل رفض تلحينها، ما دفع عبد الحليم إلى الاستعانة ببليغ حمدي بدلا منه.

واللافت أن كثيرا من الكُتاب والصحفيين الكبار تحولوا إلى أكّفّ تصفيق دائم للرئيس السادات، وكتب مصطفى أمين بعد الإفراج عنه من السجن سنة ١ أول مقالاته بعد تسع سنوات من الغياب، ولم يكن غريبًا أن يكون المقال في مدح الرجل مؤكدا أن «من حق هذا الرجل أن يطلق على عهده عهد العبور.. عبور مصر من الظلمات إلى النور.. من الظلم إلى الحرية».

وقد وصل الأمر بالشيخ الشعراوي نفسه إلى أن رد على استجواب في البرلمان، عندما كان وزيرا للأوقاف، بقوله إنه رفع الأمر إلى من «لا يُسئل عما يفعل» وكان يقصد الرئيس السادات، وهي إحدى السقطات التي يأخذها البعض على الشيخ رحمه اللـه.

وفي تصور الدكتور محمود جامع ـ الصديق المقرب من عبد الناصر وابن بلدته ـ أن مقالات المديح المتكررة التي شاعت خلال النصف الثاني من السبعينات في الصحف المصرية، وتناولت حكمة وعبقرية ودهاء وعظمة ووطنية الرئيس أنور السادات، والتي كان يقودها عدد من الصحفيين والكتاب أبرزهم على حمدي الجمال، وموسى صبري، وعبد الستار الطويلة، وأنيس منصور، أدت إلى تحويله إلى طاووس وجميع معارضيه لا يفقهون. ولا شك أن كل ذلك هو ما دفع السادات دفعًا لنهايته المأساوية، بعد قرارات اعتقالات سبتمبر الشهيرة التي ختم خطاب إعلانها مُرددًا الآية الكريمة «ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا...» وسقط الرجل صريعًا وسط جيشه برصاص مصري.

ويذكر الكاتب الكبير محمد العزبي في كتابه المعنون «الصحافة والحُكام» كيف كانت نهاية كثير ممن سخّروا أقلامهم لإرضاء أهل السُلطة موجعة ومُحزنة، ساردًا كيف مات الكاتب على حمدي الجمال رئيس تحرير الأهرام السابق، بعد «قرصة ودن» سريعة من السادات. إنه يخبرنا أن السادات عيّن «الجمال» رئيسًا لمجلس إدارة وتحرير الأهرام عام ١٩٧٥، ليصبح رقيبا على كُتاب اليسار الذين يخاصمون الرئيس. وفي يوم ما اتصل الرئيس السادات بالرجل مُعنفًا وهو يقول له: كيف يكتب الكاتب فلان ما كتب؟ ثُم كال له الشتائم كأنه خادم له، وبعدها بأيام سافر السادات إلى باريس ودعا رؤساء التحرير معه عدا «الجمال» الذي سارع إلى نائب الرئيس حسني مبارك يسأله إن كان السادات غاضبا منه، فأخبره أنه لا يظن ذلك ونصحه بالسفر إلى باريس على نفقة الأهرام، وبالفعل حمل الرجل حقائبه وهبط إلى نفس فندق رؤساء التحرير المصاحبين للرئيس، لكنه فشل في الحصول على غرفة لعدم وجود اسمه ضمن الوفد المرافق. ثُم اضطر رئيس تحرير الأهرام إلى أن يحمل حقائبه مرة أخرى ويعود إلى القاهرة مُتعبًا حزينًا، قبل أن تفاجئه أزمة قلبية لتُنهي حياته.

مُبارك والشعراء

أما مبارك فقد حاول في بدايات عهده الظهور بمظهر الرجل المتواضع البسيط، وكانت من أشهر مقولاته «الكفن مالوش جيوب». وفي رأى الكاتب البريطاني الشهير روبرت فيسك، كان مبارك نموذجيًا حتى النصف الثاني من الثمانينات، وكان كثيرًا ما يلتقي برجال المعارضة ويجري اتصالات بهم، مثل

الدكتور حلمي مراد، وفتحي رضوان، ثم بدأت مظاهر الفرعونية تبدو عليه، وتغيرت نظرته إلى الشعب، بسبب مدائح النفاق وعرائض الإشادة التي وصلت بأحد رؤساء التحرير إلى أن يكتب «إن مصر ولدت يوم مولد مبارك».
وكان مصير كل من ينتقد أو يعارض الرئيس مبارك مخيفا، إذ تعرض الكاتب الراحل جمال بدوي للضرب في وسط الشارع، لأنه تجرأ وكتب يوما مقالا بعنوان «أصابت امرأة وأخطأ الرئيس»، كما تعرض كل من مجدي حسين، وعبد الحليم قنديل، لممارسات شبيهة لنفس السبب.
ويذكر الزميل صلاح الرشيد في كتابه «المنافقون في عهد مبارك» ـ طبعة مدبولي ـ أن مكتبة «أبجدية» بوسط القاهرة نظمت ندوة بعنوان «مبارك في عيون الشعراء» تتناول الكتاب الذي أصدرته الهيئة المصرية العامة للكتاب، عقب محاولة اغتيال مبارك في أديس أبابا عام ١٩٩٥؛ حيث ألقى الشعراء نحو ٦٢ قصيدة لمدح مبارك في شهر واحد، وجمعت الهيئة هذه القصائد في ديوان حمل اسم «مبارك في عيون الشعراء» طبعته هيئة الكتاب، وكتب الدكتور سمير سرحان رحمه اللـه في مقدمه الكتاب: «خفقت قلوب الشعراء لعودة الرئيس مبارك سالمًا من غياهب المؤامرة وعودة مصر سالمة معه، وعندما ينشد شعراء مصر في حب مبارك فإن القلوب تهتز والأفئدة تهفو إلى صانع الخير والحق والجمال». وتضمن الكتاب قصائد عدد من الشعراء، في مقدمتهم محمد التهامي ومحمد أبودومة والدكتور عبد العزيز شرف.
ولم تكن حال المثقفين مع الأنظمة والطغاة العرب تختلف كثيرًا عن حالهم مع طغاة النيل، فمن لم يجد طريقًا نحو حاكم مصر سلك طرقا نحو مستبدين ساديين من عينة صدام حسين ومعمر القذافي. والمؤسف أن الطاغية الليبي المجنون معمر القذافي تحول إلى أديب كبير، وقامت هيئة الكتاب المصرية بطبع مجموعة قصصية له، وكانت في غاية الركاكة تحمل اسم «القرية القرية»، وكان من المؤسف أيضا أن نقادًا مصريين كبارًا انقادوا للتبشير بالعبقرية الفنية الفذة للجنرال الأديب.

نفاق الإخوان

ولما تولت جماعة الإخوان المسلمين حكم مصر (في الفترة من يونيو ٢٠١٢ إلى يوليو ٢٠١٣) انقلب كثير من المُثقفين والمُبدعين المُباركيين إلى مُصفقين ومُبشرين بالعهد الجديد، وبالرئيس الفذ، ووصل الأمر برجل أعمال شهير، عرف دوما بمساندة الحزب الوطني في زمن مُبارك، إلى نشر صفحات كاملة في الصحف تأييدا لمحمد مُرسى واستبشارا بقدومه، ووصل الأمر برجل آخر إلى فبركة قصة مفادها تسميته على اسم أحد مؤسسي جماعة الإخوان، ولما خُلع محمد مُرسي بإرادة الناس انقلب المصفقون إلى لاعنين.
ومرت الأزمان وسقطت أنظمة وقامت أخرى، واستمر النفاق سمة أصيلة في بلاد الشرق، ومنها بلادنا.

الكفاح المُسلح للمرأة المصرية

«من يرى وجوه المصريات وهُن يقبضن بأيديهن على السلاح يرى عزيمة ماضية للجلاء»

مجلة «الاثنين» في وصف كتائب الفدائيات سنة ١٩٥٠

التاريخ مُتعتي. أنبشه بعقلي قبل أظفاري لأقرأ ما لم يُقرأ وأستبين ما لم يُكتب وأرسم ظِلالا لحيوات ووقائع مُثيرة. ولا شك أن قراءة مختلف جوانب تاريخ المرأة المصرية أمر بالغ الصعوبة، في ظل قلة المصادر ومحدودية الشهادات وندرة الوثائق، لكن سحب خيوط بعض الحوادث، وإعادة استنطاق بعض الشهادات، يفتح نوافذ جديدة على وقائع أُهملت وسقطت من ذاكرة الوطن.

ولا شك أن تاريخ الكفاح المُسلح للمرأة المصرية في العصر الحديث لم يُكتب بعد، بخاصة أن هُناك فدائيات مُحترفات شاركن في حمل السلاح واقتربن من الخطر في وقائع عديدة، كانت كُلها في سبيل الوطن.

ولأنَّ الحضارة أنثى كما يقول نزار قباني، فإن أي ثورة لا تفلح متى غابت نساؤها، وإن أي تحرر لا يصح متى أهملت المرأة، والتاريخ خير شاهد وحكم.

وإذا كان تاريخ المرأة المصرية لم يُقدم لنا نماذج مُقاتلات واضحة، مثل جميلة بوحيرد الجزائرية، أو جان دارك الفرنسية، فإن ذلك مرده إلى أن أحدا لم يُفتش جنبات التاريخ كما ينبغي بحثا عنهن.

إنَّ كثير من الناس يجهلون كيف تحولت بعض المصريات إلى مقاتلات محترفات من أجل الوطن، يُدبرن ويُخططن ويشاركن ويتعرضن للموت والتعذيب في سبيل الحرية والاستقلال، بخاصة خلال عهد الاحتلال البريطاني على مصر (١٨٨٢ ـ ١٩٥٤).

من البدايات كانت المرأة فاعلة ومُشاركة، وتكشف لنا سِيَرُ الجمعيات السرية التي ناهضت الاحتلال البريطاني وقاومته، خلال الفترة من ١٩١٠ وحتى ١، كيف كانت النساء عاملاً رئيسيا في تنفيذ كثير من عمليات الاغتيال والقتل الموجه لجنود الاحتلال ورجالهم.

زوجات فدائيات

بعيدًا عن الدور السياسي الذي لعبته نساء رائدات في مجال تحرير المرأة وخروجها إلى الحياة العامة، مثل هُدى شعراوي ومنيرة ثابت وغيرهما، فإن شهادات عديدة تورد أدوارًا مُبكرة لنساء مجهولات لم تصلنا أسماؤهن، لكن وصلتنا بعض أفعالهن عبر شهادات مُتفرقات. بداية علينا أن نقر أننا لا نلمح في مذكرات هدى شعراوي أي روح بطولية للتضحية أو الاستعداد للاستشهاد، بل نجدها تُلقي باللوم على أحمد عرابي لخروجه على الخديوي، وتتهمه بأنه سبب احتلال البلاد، ولا تنسى السيدة ثأر والدها سلطان باشا وكراهيته لعرابي، لتُكرر تحميل مسؤولية ضياع البلاد له. لذا فإننا لا نستغرب ألا نجد في مذكراتها أي بطولات حقيقية، لا شاركت فيها ولا حتى شهدت عليها.

وبالبحث في متون الصحف والحوليات المتحدثة عن الثورة، يحكي حسن كامل الشيشيني، وهو أحد كوادر الجمعيات السرية ضد الاحتلال البريطاني في الربع الأول من القرن العشرين، للكاتب الراحل صبري أبو المجد (مجلة المصور ـ ملف الأحياء يتكلمون ـ ٥٠ عاما على ثورة ١٩١٩ـ مارس ١٩٦٩) عن زوجة الحاج أحمد جاد اللـه، وهو أحد أنشط القتلة الوطنيين وحُكم عليه

بالإعدام، كيف كانت امرأة صلبة، قوية الإرادة، رابطة الجأش، تبتسم في ظل العواصف، وتجاهد دون أدنى خوف حتى لحظة إعدام زوجها.
إنَّ الشاهد لا يقدم لنا اسم هذه المرأة ولا وصفها، وفي الغالب لم يكن لأحد أن يعرف وصفها لأن وجهها كان مستورًا خلف البرقع، لكنه يُخبرنا بأن هذه السيدة كانت محل اعتماد الحاج أحمد جاد اللـه في نقل الأسلحة من مكان إلى آخر، وتسليم القنابل وإخفائها. ولا شك أن تلك السيدة كانت شريكة لزوجها في عمليات الاغتيال التي نفذها ضد ضباط إنجليز، وموظفين ومُستخدمين في جيش الاحتلال. وكانت تلك الفدائية تجلس ومعها سلة «سِميط» وتُنادي على السميط حتى إذا وصل إليها أحد الفدائيين وأبلغها كلمة السر منحته مُسدسات مُخفاة تحت السميط.
إنَّ نفس الشاهد ـ حسن الشيشيني الذي حُكم عليه بالأشغال المؤبدة في قضية التنظيم السري ـ يحكي لنا أن الفدائي محمود إسماعيل عندما تزوج سعى لاختبار زوجته، فدخل عليها وعلى ملابسه بقعة دماء، وقال لها إنها دماء جُندي بريطاني قاموا بقتله، وإنه وأصدقاءه لا يعرفون كيف يتخلصون من الجُثة، ففوجئ بها تضع له خطة لإخفاء الجثة تمامًا، وهو ما يعني أن زوجات الفدائيين كن مُشاركات مشاركة كاملة في الثورة المُسلحة.
وتحكي هدية بركات، حرم بهي الدين بركات، أنها عملت بأسيوط مع فكرية حُسني في توزيع المنشورات ضد الإنجليز، خلال أحداث ثورة ١٩١٩، وكانت تُخفي المنشورات في سلال الخُضر والفاكهة، وتركب قطار الصعيد القشاش الذي يقف في كل محطة، وكانت فكرية حسني تكلف مفتشات وزارة المعارف بانتظارها في كل محطة، لتتسلم كل واحدة حصة مدينتها من المنشورات، وبتلك الطريقة أمكن نقل تعليمات وخطط وتكليفات من القاهرة عبر أنحاء الصعيد.
ولم يقتصر الأمر على الزوجات، فتحكي مثلا علية صدقي، وهي ابنة أحد ضباط الجيش المصري، أن شقيقها كان ممن يقومون بتهريب الأسلحة وكان يحضر مساء إلى المنزل ومعه أسلحة خفيفة، ويقوم بتسليمها لها ولوالدتها في حديقة المنزل، لدفنها في الحديقة. واللطيف أن حسن كامل مأمور قسم سراي القبة، كان يُخبرهم عن طريق عسكري إشارة قبل أي عملية تفتيش لمنازل المنطقة، حتى يقوموا بإخفاء الأسلحة في مكان آخر، وإذا ما جاء كان يصيح في العساكر ليفتشوا المنزل جيدًا.
ومن المعروف أن نساء كثيرات دفعن حياتهن ثمنا للمشاركة في الثورة، ومُنهن مثلا شفيقة محمد التي ذكر المنشور رقم ٥٩٢ لثورة ١٩١٩ في يوم ١٠ أبريل أنها أول شهيدة، وهي أرملة كانت تبلغ من العمر ٢٨ سنة، ومحل سكنها الخرطة القديمة بالخليفة، وقد قُتلت برصاصة في البطن.
ويحكي مصطفى أمين في الكتاب الممنوع قصة دولت فهمي، إحدى الفدائيات العظيمات في العمل السري، فيقول إن الجهاز السري قرر إرهاب أي مصري يقبل الوزارة في ظل الاحتلال، وصدر تكليف بإرهاب وزير يدعى محمد شفيق باشا قبِل ثلاث وزارات في ظل الاحتلال، ونفى زعماء الوفد،

وبالفعل تطوع طالب يدعى عبد القادر شحاتة لتنفيذ المهمة، إذ ألقى على الوزير قنبلة لإرهابه، ونجا الوزير وقبض على الطالب ذي الواحد والعشرين عامًا واعترف باشتراكه فى محاولة الاغتيال، وحاول المحققون معرفة مكان وجوده قبل الحادث بيوم ليربطوا بينه وبين بعض الفدائيين، وضغطوا عليه بقوة، وخشي قادة الجهاز السري أن يعترف تحت وطأة التعذيب، لأنه كان يبيت في ذلك اليوم عند أحمد ماهر في بيته، ولو علم البوليس ذلك لانهار الجهاز السري تماما. وتلقى الطالب الفدائي رسالة من الجهاز السري تدعوه للقول إنه كان يبيت في اليوم المذكور عند ناظرة مدرسة الهلال السيدة دولت فهمي. وفوجئ عبد القادر شحاتة بسيدة جميلة تزوره وتقبله أمام المحققين، وتشهد أنه كان لديها قبل ارتكاب الجريمة، وأنه يمتنع عن الكلام خوفًا على سمعتها. وبعد سنوات من السجن، تولت وزارة سعد زغلول الحكم وقررت العفو عن كافة السجناء السياسيين وخرج عبد القادر شحاتة على أمل اللقاء بتلك السيدة الفدائية التي ضحت بسمعتها من أجل الثورة، ويسأل كثيرين عنها ولا يجيبه أحد، حتى يخبره أحد أعضاء الجهاز السري بأن أهلها علموا بشهادتها في القضية واصطحبوها معهم إلى المنيا، وهناك ذبحوها ليستردوا شرفهم الضائع، ويغسلوا عار العائلة. ولم يعلم أشقاء دولت فهمي أنهم قتلوا واحدة من أعظم فدائيات ثورة ١٩١٩.

لقد كانت المصريات مُتحفزات ومُختلطات بالخطر والفداء، في ثورة واقعية حملت السلاح ضد الاحتلال البغيض. ومن المؤسف أن يتناول بعض الباحثين المعاصرين ثورة ١٩١٩ باعتبارها ثورة سلمية، مُتصورين أن وصمها بالثورة المُسلحة يُقلل من عظمتها، وهو على أي حال ليس موضوعنا.

راقصات وطنيات

وقد تواصل الكفاح السري للمرأة المصرية خلال الحقبات التالية، وبرزت ضمن خلايا التنظيمات السرية أكثر من سيدة، ربما أشهرهن السيدة حكمت فهمي التي كانت راقصة سافرت إلى أوروبا خلال بداية الأربعينات من القرن الماضي، وتعرفت مسؤولين في المخابرات الألمانية، لتعمل في إطار الاستفادة من الألمان ضد الاحتلال الإنجليزي، ولعبت بالفعل دورًا في عقد الاتصال بين بعض ضباط الجيش المصري، وعلى رأسهم عزيز باشا المصري، والسلطات الألمانية، وقد اكتشفت السلطات البريطانية دورها وتم القبض عليها، وظلت في السجن لنحو ثلاثة أعوام، رغم عدم ثبوت التهمة عليها. وقد تحدث الرئيس الراحل أنور السادات في كتابه «البحث عن الذات» عن الدور الوطني الذي لعبته حكمت فهمي، مُعترفًا بدوافعها الوطنية النبيلة.

ويبدو أن جانبا آخر في العمل السري قد أشرفت عليه سيدة أخرى عرفت بقوة نفوذها، وهي السيدة ناهد رشاد، التي قيل إنها كانت عضوا مؤثرا في جهاز الاغتيالات الخاص بالملك فاروق، والذي عُرف باسم الحرس الحديدي. وفي المذكرات التي نشرها سيد جاد، باعتباره واحدًا من كوادر تنظين الحرس الحديدي، يحكي كيف كانت سيطرة وهيمنة ناهد رشاد على التنظيم وعملياته ضد بعض الساسة والإنجليز.

ولا شك أن سيرة الراقصة تحية كاريوكا تضُم جانبًا مُهما في قصص العمل المُسلح، بخاصة أنها تزوجت في مرحلة من مراحل حياتها بالضابط المتطرف مُصطفى كمال صدقي، الذي نفّذ كثير من عمليات الاغتيال السياسي ضد الإنجليز، وضد بعض الساسة والضباط والخصوم، والمثير أن زواجهما كان سببًا في دخولها السجن والتحقيق معها، إلا أنها لم تتحدث أبدًا عن تفاصيل دورها، وإن كان البعض قد أشار إلى علاقات ربطتها بحركة الفدائيين في القناة، منهم زميلنا الكاتب سليمان الحكيم في كتابه «تحية كاريوكا بين الرقص والسياسة» حيث يورد قصة مفادها أنها قدمت نفسها كمتطوعة للمشاركة في قوات الفدائيين، وطلب منها وجيه أباظة نقل أسلحة وطوربيد إلى الإسماعيلية، فنفذت المهمة بنجاح. كما كتب الكاتب الكبير إدوارد سعيد مقالاً بديعًا عن تحية كاريوكا والسياسة.

كتائب بنت النيل

ورُبما لا يعرف الناس أن النساء المصريات حملن السلاح، وشاركن في حرب الفدائيين التي بدأت عام ١٩٥٠ ضد قوات الاحتلال البريطاني في منطقة القناة. وقد روت مجلة الاثنين، في عددها رقم ٨٥٨ الصادر في ٢٠ نوفمبر ١٩٥، قصة كتائب بنت النيل التي تبنتها الدكتورة درية شفيق. لقد كونت درية شفيق أول كتيبة نسائية، وطلبت من ضباط الجيش المصري المتقاعدين تدريب نساء الكتيبة على حمل السلاح، للمشاركة في معارك تحرير البلاد، وبالفعل تقدم ضابط عمل في حرب فلسطين، ومعه جاويش وصف ضابط، لتدريب الكتيبة التي تألفت من ستين متطوعة، واستمرت عملية التدريب لنحو شهرين، قال بعدها الضابط للصحف إنهن على استعداد كامل وتام للمشاركة في المعارك تماما كالرجال. ووصفت مجلة «الاثنين» ملابس المتطوعات، فقالت إنها تكونت من بذلة زيتية وحذاء مستو وقايش وجاكيت كحلي مُحلّى بشارة بنت النيل. وعلقت المجلة على ذلك بأن «من يرى وجوه الفتيات المصريات وهُن يقبضن بأيديهن على السلاح، يرى عزيمة ماضية وإرادة قوية تعكس في وضوح وجلاء رغبات وادي النيل كله».

وفي نفس المجلة تم تنظيم ندوة الأسبوع تحت عنوان «كيف تساهم المرأة في طرد الإنجليز؟» شاركت فيها بعض سيدات المجتمع، وتم الاتفاق على ضرورة جمع التبرعات لكتائب الفدائيين والفدائيات. وقالت نعيمة هانم المصري «إن على المرأة المشارَكةَ بشكل مباشر في المعارك، جنبا إلى جنب مع المجاهدين في القنال».

وقد قبض على عدد من سيدات كتائب النيل وتم تقديمهن إلى المحاكمة، وكان على رأسهن مؤسسة الكتائب الدكتورة درية شفيق، التي حولت تلك الكتائب لاحقا إلى حزب سياسي جديد، لكن للأسف لم يُكتب له البقاء.

والمؤسف أيضا في هذا الأمر أن السيدة التي تبنت إنشاء تلك الكتائب، وهي الدكتورة درية شفيق التي كانت واحدة من رائدات تحرير المرأة في مصر وكانت أحد أهم أسباب منح النساء حق الانتخاب سنة ١٩٥٦، عاشت مأساة إنسانية إذ تعرضت للاضطهاد والعزلة خلال عهد الرئيس جمال عبد

الناصر، وفيما بعد سقطت من منزلها بالزمالك، وقيل إنها انتحرت بعد اكتئاب شديد لازمها عدة سنوات.

المقاومة امرأة

وقد توالت مشاركات النساء في العمل المُسلح، حتى إنه تم تشكيل كتائب متطوعات جديدة خلال العداون الثلاثي على مصر. وطبقا لكتاب صادر عن هيئة الاستعلامات المصرية عام ١٩٧٤ فإن عدد المتطوعات في حرب ١٩٥٦ بلغ نحو ثلاثين ألف سيدة، شاركن في أعمال التمريض والخدمة، وقام بعضهن بالمشاركة الفعلية في أعمال القتال. وثمة صور باقية لنا لمشاركات لسيدات وفتيات في حمل السلاح خلال حرب السويس، لكن للأسف الشديد لم يأخذ هذا الجانب حقه في التسجيل والتوثيق.
لقد كانت تلك السنوات تمثل مرحلة مد حقيقي للمرأة العربية، وذاعت في الذهنية العربية بطولات لسيدات عربيات ساهمن في العمل المُسلح لأوطانهن، مثل المناضلة الجزائرية جميلة بوحريد، التي ظلت رمزا لنضال المراة العربية جيلاً بعد جيل، وعندما تحررت الجزائر رسميًا سنة ١٩٦٢ زارت المجاهدة مصر، حيث تم الاحتفاء ببطولتها وعقدت عدة لقاءات سياسية واجتماعية مع ممثلات للمرأة المصرية.
ويمكن القول إن استمرار الصراع العسكري بين مصر وإسرائيل كان دافعًا قويًا لاستمرار عطاء المرأة في مجال الحرب بمفهومها الشامل، سواء العسكرية المباشرة أو المخابراتية والمعلوماتية. والثابت رسميا أن نساء مصر واصلن المشاركة في الكفاح المسلح في حرب ١٩٦٧ ثم في حرب أكتوبر ١٩٧٣، وشاركت نساء سيناء ومُدن القناة في نقل الأسلحة والمعلومات لرجال المقاومة، وهو ما ظهر بعد ذلك في تكريم الرئيس الراحل أنور السادات لعدد من سيدات سيناء، لخدمتهن القوات المسلحة وأدوارهن في نصر أكتوبر، وهو ما لم يُكتب بعد بالتفصيل الواجب.
ويقول الشاعر الراحل عبد الرحمن الأبنودي في حوار مع موقع «البديل» في ذكرى نصر أكتوبر، إن المرأة المصرية لم تكن أم البطل أو زوجة لشهيد أو ممرضة للجراح فقط، بل ناضلت كتفا بكتف مع الرجل، وشاركت بعض النساء في المقاومة الشعبية بالسويس.
وأضاف «الأبنودي» أن أبرز هذه الأمثلة كانت «الست فاطوم»، تلك المرأة المصرية العظيمة التي لم تكن تملك من الدنيا إلا عشر دجاجات ذبحتها كلها لرجال المقاومة، وكانت تعمل قدر استطاعتها ـ رغم القصف الشديد ـ على نقل الذخيرة وتضميد جراح الأبطال الفرسان، أما فلاحة فايد فقد كلفها أحد الضباط بأن تذهب إلى مكان تمركز آليات العدو ومجنزراته وتختبئ بين الأشجار الكثيفة في منطقة فايد وسرابيوم، لتكون هذه الفلاحة البسيطة جزءا من خطة الاستطلاع، واستطاعت ببسالة شديدة أن تحمل طفلتها على كتفها لتنفيذ المهمة والتمويه على جنود الاحتلال لكي لا يشك فيها أحد، دون أن تخشي انكشاف أمرها والتعرض لمخاطر القتل أو القبض عليها.
وهكذا كانت المرأة المصرية شريكًا قويًا في حركات الكفاح المُسلح، سواء

بالمُساعدة والتخطيط أو بالمشاركة المُباشرة.

الساخرون والمتفكهون

«إن أهل مصر يميلون إلى الخفة والمرح والغفلة عن العواقب»
ابن خلدون

المصريون مشهورون بالظّرف، وخفة الدم، والفُكاهة. ومُنذ القدم استخدم المصريون النُكتة للتعبير عن تصوراتهم وآرائهم تجاه أمور بعينها، رُبما سياسية، وفي الأغلب اقتصادية واجتماعية.
ولا شك أن كثيرًا من الباحثين اعتبروا السُخرية واحدة من أهم سمات الشخصية المصرية، وهذا ما سماه العالم المصري الكبير فرانسوا باسيلي «الشغف بالحياة» من خلال المرح والهرج والضحك والقفشات واللمسات الإنسانية. ويكفي أن المفكر العربي الكبير ابن خلدون كتب في مقدمته الشهيرة أن «أهل مصر يميلون إلى الفرح والمرح والخفة والغفلة عن العواقب».
وها هو الكاتب الكبير أحمد أمين يقول في كتابه «قاموس العادات والتقاليد المصرية» إن النكتة كانت سلاحًا مصريًا يلجأ إليه المصري تعويضا عن شعوره بالكبت، وتنفيسًا له من الضائقات التي تنغصه.

النُكتة في اللغة

وبالنسبة للغة، تتوع تعريفات النكتة في المعاجم وموسوعات المعارف العربية والأجنبية. ويرجع الأصل اللغوي لكلمة «نكتة» طبقا للقاموس المحيط، إلى فعل «نَكَّتَ» الرمح أي أثّر تأثيرا، أو طعن به طعنا. ويقال إن النكتة هي المسألة الدقيقة جدا، أو الفكرة اللطيفة المؤثرة في النفس. ويعرف البعض «النكتة» بأنها «وسيلة من وسائل الهزل والضحك بغرض التنفيس عن الأحاسيس والأفكار الممنوعة والمكبوتة»، ويعرفها آخرون بأنها «رد فعل تلقائي لظاهرة ما مثل الكذب، البخل، الغباء، المبالغة»، ويعرفها قاموس «أكسفورد» بأنها «قصة قصيرة لها نهاية مضحكة» أو «فعل ما للتسلية والفكاهة»، ويعتبر هنرى برجسون في كتابه «الضحك» النكتة مسألة فلسفية حيوية، بينما يرى جان فوراستي النكتة وسيلة من وسائل التواصل مع المجتمع، ويعتبرها الدكتور شوقي ضيف «فكاهة المجالس».
ويمكن القول إن المتناقضات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية الخطيرة كانت سببا لانتشار النكت بين المصريين، قديما وحديثا، وربما كانت هذه المتناقضات أبرز ما يلفت نظر الزائرين قديما وحديثا، ولا يمكن أن ينسى أحد أبيات الشعر التي قالها أبو الطيب المتنبي واصفا مصر «وكم ذا بمصر من المضحكات ولكنه ضحك كالبكا». كما أن موريس هيندوس، الروائي الروسي الذي زار مصر عدة مرات، اختار أن يصف مصر عندما زارها في منتصف القرن العشرين بـ«أرض المتناقضات».
وبالفعل يمكن القول إن المتناقضات في مصر لافتة للنظر بشدة، فهناك أثرياء ينفقون ببذخ شديد ويطعمون كلابهم بميزانيات تكفي إعالة أسر كاملة، وهناك أناس يفتشون القمامة بحثًا عن بقايا طعام. وفي مصر أناس متدينون إلى درجة التصوف، وآخرون فجار يسبون الدين ويسخرون من المتدينين. وفي مصر أيضا جلادون قساة ماتت قلوبهم وضمائرهم يُعذبون المساجين والعزل تعذيبًا بشعًا، وهناك أرقاء يبكون عطفًا على اليتامى والمساكين. كذلك فإن لدينا شرفاء لا يقبلون المال الحرام مهما كان حجمه ومهما كان

احتياجهم له، وهناك آخرون مرتشون يضعون أمامك العراقيل والعواقب حتى تدفع لهم لتحصل على حقك. وفي مصر أناس طيبون يحبون الآخرين ويتمنون لهم الخير ويقدمون لهم النصح ويساعدون من يحتاج المساعدة، وفيها أيضا كثير من الأشرار والاستغلاليين وأصحاب الأطماع. إن بلدنا يمثل حالة اجتماعية عجيبة تبصر فيها الخير والشر، والجمال والقبح، والألم والمتعة، والصفة الطيبة ونقيضها.

تاريخ من السُخرية

ومَن يُطالع الآثار المصرية القديمة يعجب كيف سخر الأوائل من أعدائهم بتصويرهم في أوضاع مقلوبة، وقد تم العثور على عشرات الرسوم الساخرة التي يرجع معظمها إلى عصر الرعامسة، كما استخدم الفنان القديم العديد من الرموز مثل القط الذي يقوم على خدمة الفأر الذي يرتدي ملابس الأشراف، أو مجموعة الفئران تهاجم قلعة القطط.

ويوجد على أحد جدران معبد الدير البحري الذي شيدته الملكة حتشبسوت (١٤٩٠ ـ ١٤٦٨ ق. م) نقش لمنظر طريف يصور رئيس بلاد بونت، ووراءه زوجته الملكة (إيتي) وهي امرأة بدينة، وقد بالغ الفنان المصري في تصويرها كأننا أمام كاريكاتير متكامل العناصر اللازمة لفن الكاريكاتير، فهناك صورة ومبالغة وتأثير ساخر، وهناك أيضا العديد من رسوم البرديات والنقوش، في العصور المختلفة، التي تؤكد استخدام النهج الساخر للتعبير عند المصريين القدماء.

كما سخر المصريون من الرومان والبطالمة، حتى إن الشاعر اليوناني ثيوكرتيوس، الذي عاش في الإسكندرية خلال القرن الثالث قبل الميلاد، كتب في وصف المصريين «إنهم شعب ماكر، لاذع وروحه مرحه».

ويستعرض الدكتور شوقي ضيف في كتابه «تاريخ الفكاهة في مصر» صور سخرية المصريين من حكامهم بعد الفتح الإسلامي، ويذكر أن سيبويه المصري كان واحدا من أشهر الساخرين والمضحكين، وقد عاش خلال حكم الدولة الإخشيدية، واشتهر بنقده اللاذع للحكام وجورهم. كما اشتهر في العصر الفاطمي شاعر وكاتب كوميدي بمصر يدعى ابن قادوس الدمياطي، وقد اهتم بفضح منافقي الحكام.

حكايات قراقوش

أما في العصر الأيوبي فقد اشتهر فيه رجل خطير يدعى الأسعد ابن مماتي، في عهد صلاح الدين، وترك لنا كتابًا عظيما باسم «الفاشوش في حكم قراقوش» وقد عُني ذلك الكتاب بذكر نوادر وحكايات وزير صلاح الدين الأيوبي، المعروف باسم بهي الدين قراقوش، ويظهر من الكتاب أن قراقوش كان ظالما وغبيا، وليس له دراية بالوزارة وتدبيراتها.

ومن النوادر الشهيرة الواردة بذلك الكتاب أن متسولاً طلب طعامًا فقال له قراقوش «مزقت قلبي بشكواك، ولا أجد لك سوى السجن مقاما حتى إذا شبعت أفرج عنك». وفي نادرة أخرى سأل قراقوش بائع لبن غشاش: كيف تخلط اللبن بالحليب؟ فقال له: إنما أغسله، فقال قراقوش: أنت رجل تحب

النظافة ولا لوم عليك وسأضع من أبلغ عنك في السجن! وقد كان.
وفي العصر العثماني شاعت الفكاهة والنكت والأزجال المضحكة التي دونت باللهجة العامية، وقد سماها المؤرخ الشهير عبد الرحمن الجبرتي بالإضاحك.
ومن أشهر الظرفاء في ذلك العصر ابن سودون الذي أطلق عليه البعض «جحا المصري»، وتبعه كثيرون أبرزهم يوسف الشربيني صاحب قصيدة أبو شادوف.

ظرفاء الصحافة

ثم توالى ظهور الظرفاء والمضحكين في العصر الحديث، مع ظهور الصحف الهزلية وانتشار فن الكاريكاتير، بدءًا من عبد اللـه النديم، ويعقوب صنوع، ومحمد توفيق، وأحمد حافظ عوض، وحتى أحمد عباس وحسين علي صاحبي مجلة «البعكوكة»، ثم حسن شفيق المصري، وعبد العزيز البشري، وعبد الحميد الديب، ومحمد البابلي، وعبد القادر المازني، ومحجوب ثابت، وبيرم التونسي، وغيرهم.
ويذكر الفنان أحمد عبد النعيم في كتابه عن فن الكاريكاتير، أن القرن العشرين شهد ميلاد عشرات المجلات والصحف الفكاهية، بعد مجلة «أبو نظارة» التي أصدرها يعقوب صنوع في عام ١٨٧٨، وربما من أشهر تلك المجلات مجلة «اللطائف المصرية»، ومجلة «الكشكول» ١٩٢١، ومجلة «خيال الظل» ١٩٢٤، ومجلة «الفكاهة» ١٩٢٨ ومجلة «الراديو» ١٩٣٤ التي تحمل داخلها مجلة صغيرة باسم «البعكوكة»، وزاد توزيعها إلى أرقام فلكية حتى صدرت باسم «الراديو والبعكوكة» لتصدر بعد ذلك باسم «البعكوكة».
وتعتبر مجلة «الكشكول» الميلاد الأول لفن الكاريكاتير المصري في العصر الحديث، وقبل صدورها عام ١٩٢١ كانت مجلة «اللطائف المصرية» تستعين بالرسوم الأجنبية الأوروبية لتمصيرها، وكتابة تعليق عن الأحداث المصرية، حتى استعانت برسام مصري اسمه إيهاب خلوصي لم يستمر طويلاً، ثُم قامت مجلة «الكشكول» بالاستعانة بالرسام الإسباني خوان سانتيس الذي جاء إلى مصر بدعوة من الأمير يوسف كمال، للعمل في مدرسة الفنون الجميلة التي أنشأها سنة ١٩٠٨.
وقد شاعت النكتة بعد ذلك كفن من الفنون المحبوبة في المجتمع، وعرف الناس ظرفاء متعددين يلقون النكات ويُضحكون الناس، مثل إسماعيل ياسين، ومحمود شوكوكو، ومن قبلهم نجيب الريحاني وعلي الكسار وغيرهم.

الساخرون من الفقر

وترد نوادر عديدة لشاعر النيل حافظ إبراهيم، الذي اشتهر ببؤس الحال والفقر، تُعبر عن كونه أحد ظرفاء عصره، منها مثلاً ما حكوه عن أن الشاعر الذي عُرف بفقره وضيق أحواله المادية كان يمشي يومًا في الشارع، وفوجئ بأحد المتسولين يقترب منه ويوقفه ويطلب منه قرشًا واحدًا، فرد عليه حافظ إبراهيم قائلا: «عمرك أطول من عمري.. كنت حأقولك كده برضه».
ويعجب الشاعر حافظ إبراهيم عندما يرى صناديق النذور مليئة بالأموال، وكثير من الناس لا يجدون الكفاف، فيكتب في ذلك ساخرا:

أحياؤنا لا يرزقون بدرهمٍ
وبألف ألف تُرزق الأمواتُ.
من لي بحظ النائمين بحفرة
قامت على أرجائها الظلماتُ.
يسعى الأنام لها ويجري حولها
بحر النذور وتقرأ الآياتُ.

ويُحكى أيضا أنه لما ضاقت الحال بإمام العبد، وهو واحد من الصعاليك المشاهير، ذهب إلى أحد أصدقائه ليقرضه عشرين قرشًا، فلم يجد معه إلا عشرة قروش، فأخذها إمام وقال له «معلهش.. يبقى لسة لي عندك عشرة قروش.. وأنت لك عشرة قروش، نبقى خالصين».

أما محمد البابلي الذي عرفته مقاهي مصر حكاء وظريفًا عظيمًا، خلال العشرينات من القرن الماضي، فقد جلس يومًا بين اثنين من الأفندية يتجادلون عن عدلي باشا يكن وسعد باشا زغلول، وأيهما أنفع لمصر، واستشهدا برأيه فسأله أحدهما: وأنت بقى يا بابلي.. عدلست؟ وللا سعدست؟ فقال له: أنا فلّست.

وذهب البابلي يُعزي في أحد أقربائه، فوجد المعزين جميعا يجلسون على الحصير، فقال لهم: هو الميت كان على الحصيرة؟

وحكوا عنه أيضا أنه كان في حفلة وسمع أغنية «أهل الملاح والسماح.. فين أراضيهم؟»، فقال ساخرا: في البنك العقاري. وكانت أراضيه مرهونة في البنك.

ويحكون أن محمد البابلي كان في زيارة لصديق له في عزبته بضواحي القاهرة، وراح الصديق يصف للبابلي محتويات الحديقة حتى وصل إلى أشجار «الجازورينا» وقال:

إنها تصد الرياح وتمنع دخول الحيوانات.

فسأله البابلي: ماعندكش شجر يمنع دخول أصحاب الديون؟

الشاعر المحروم

وفي بدايات القرن العشرين، عرفت مصر شاعرا جميلاً وموهوبًا لكنه توارى وتعذّب بسبب فقره المُدقع، وهو الشاعر عبد الحميد الديب، الذي كان نموذجًا من أشد الساخرين من البؤس والفقر والحرمان، حتى إنه سخر من نفسه مرارًا في قصائد فكاهية رائعة. لقد ولد هذا الشاعر عام ١٨٩٨ في قرية كمشيش بمحافظة المنوفية، وعاش حياة الصعلكة والحرمان، واحترف الأدب وحده، لكنه ظل دائما يُعاني من الفاقة، حتى إنه كتب يومًا ما يلي:

أفي غرفة يا رب أم أنا في لحدِ؟
ألا شدّ ما ألقى من الزمن الوغدِ
تساكنني فيها الأفاعي جريئة
وفي جوها الأمراض تفتك أو تعدي.

ومن الأبيات الشهيرة التي يرثي بها حاله، بيت غاضب وموجع يقول فيه:

«وهام بي الأسى والبؤس حتى

كأني عبلة والبؤس عنتر
كأني حائط كتبوا عليه
هنا يا أيها المزنوق «طرطر».
وقد طلب أشغالاً ولم يجد، في زمن كانت مصر فيه أسيرة للكساد العالمي، فسخر من حرفة الشعر التي لا تُسمن ولا تُغني من جوع، وكتب:
«يا أهالي الشعر والفن الرصين... لعن اللـه أباكم أجمعين».
ويعيش الرجل بين اللهو والخمر، ويخرج من اكتئاب ليدخل في آخر، ويسب الجميع ويحنق عليهم، ويمل الحياة ويرفض العمل والنظام، ويتنقل من حجرة لأخرى ويبكي كثيرًا، ويدخل السجن، ثم مستشفى الأمراض العقلية، ثم يعود إلى ربه تائبًا مُنيبًا طالبًا صفحه ومغفرته، ويبقى هائمًا على وجهه، يعترف الناس بمواهبه لكنهم لا يعطونه ما يساعده على الحياة الهانئة، ويموت أصدقاؤه واحدًا تلو واحد ويحزن عليهم، وينتظر نهايته حتى يلقى ربه مُكتئبًا في عام ١٩٤٣، فيكتب عنه كامل الشناوي مقالاً رائعًا يقول فيه: اليوم مات شاعر جاع وشبعت الكلاب، وتعرى واكتست الأضرحة.

وزير المقالب

ويحكي الكاتب الكبير مصطفى أمين عن وزير شهير خلال العهد الملكي عرف بتدبير المقالب، اسمه حفني محمود باشا، وقد ذهب إليه يوما أحد أقربائه، وكان شابا فقيرًا، ليعيّنه في إحدى الوظائف بوزارة الحربية، وبالفعل ذهب حفني محمود إلى خشبة باشا وزير الحربية وطلب منه تشغيل قريبه، فرفض وقال له إنه ألغى الوسائط ومنع التوصيات والمحسوبية، وغضب حفني محمود ومضى، وبعد أيام قرأ في الصحف إعلانا لوزارة الحربية تطلب مترجما ممتازا براتب كبير، فذهب حفني وأحضر شابًا يجهل القراءة والكتابة وأعطاه بذلة أنيقة ورابطة عنق وحذاء، وأخذه وذهب به إلى خشبة باشا، وقال له أنتم أعلنتم عن وظيفة مترجم وهذا الشاب يجيد سبع لغات إجادة تامة، منها الإنجليزية والفرنسية والإيطالية واليابانية، وطلب من خشبة باشا أن يختبره، فأعطاه الوزير مذكرة لترجمتها إلى الإنجليزية، وبعد ذلك أخذ حفني باشا الشاب والمذكرة وذهب إلى أحد أصدقائه الدارسين بجامعة هارفارد وقام بترجمتها، وفي الصباح انبهر خشبة باشا بالترجمة، وأعطاه مذكرة أخرى ليترجمها إلى الفرنسية، وفعل حفني باشا ما فعله مع المذكرة السابقة تماما، ففرح وزير الحربية وقام بتعيين المترجم كبيرًا لمترجمي وزارة الحربية براتب كبير.
وفي اليوم التالي اتصل حفني باشا بعدلي يكن رئيس الوزراء، وقال له إن هناك فضيحة كبرى ستقع قريبا في يد المعارضة، وهي أن خشبة باشا وزير الحربية قام بتعيين شخص جاهل في القراءة والكتابة كبيرًا لمترجمي الوزارة، وعندما اتصل رئيس الوزراء بوزير الحربية وسأله عن المترجم، رد الوزير بأنه عبقري، وطلبه رئيس الوزراء، فبعثه إليه، واختبره وفوجئ بأنه لا يقرأ ولا يكتب، وضحك حفني باشا وتندر بالواقعة طيلة حياته.
ويمكن القول إن سنوات الثلاثينات والأربعينات من القرن العشرين شهدت

موجات من السخرية اللاذعة، من جانب الفنانين والساخرين ورسامي الكاريكاتير، في الصحف، وكانت أهم موضوعات السخرية تنحصر في الثراء المفاجئ، وهو ما يعرف بأغنياء الحرب، والتفاوت الطبقي، وإقبال النساء على الموضة. وكانت هناك بالطبع كثير من النكات ورسوم الكاريكاتير التي تناولت جميع الرموز السياسية بالسخرية، وربما كان الاستثناء الوحيد من ذلك هو شخص الملك، سواء كان الملك فؤاد أو فاروق. ومَن يطالع مجلات تلك الفترة يُدهَش من الاهتمام الكبير برسوم الكاريكاتير، كمادة مُعبرة عن هموم وتوجهات المجتمع.

التنكيت على «ناصر»

وعلى المستوى الشعبي شاعت النكت في عهد الرئيس جمال عبد الناصر، وكان معظمها يتناول الجوع والحرمان وضيق الحال، بخاصة في ظل صعود سيادة مبدأ الاشتراكية. وقد ذكروا مثلاً أن الرئيس عبد الناصر شعر بالملل من الرئاسة وقرر تسوية معاشه، وعلم أنه ثلاثمئة جنيه، وعندما عاد إلى بيته جلس مع أفراد أسرته وناقش ذلك معهم، فقالوا له إن لدينا مصروفا شهريا كبيرا وبنودا عديدة، منها بند للأكل، وبند للملبس، وبند للبواب، وبند للسائق، وبند للتنزه، حتى وصل المبلغ المطلوب نحو ستمئة جنيه فذعر عبد الناصر، ورفع يديه إلى السماء وقال: اللـه يخرب بيتك يا عبد الناصر.

وقد رصدت كتب ودراسات عدة النكات التي أطلقها المصريون على حكامهم، كان من أهمها كتاب «النكتة السياسية.. كيف يسخر المصريون من حكامهم» لعادل حمودة، وكتاب «نكت الرؤساء» لمحمد الباز، تناولت أهم النكات التي طاردت رؤساء مصر، وكان من الواضح أن معظمها يعبر عن اختلاط الفقر وسوء الأحوال بالفساد.

إنَّ البعض بالغ في كراهية عبد الناصر، حتى إنهم قالوا إنه ذهب لأداء فريضة الحج والتقط سبعة أحجار ليرجم بها إبليس، لكنه ألقى بستة فقط، واحتفظ بالحجر السابع، وعندما سئل عن ذلك قال:

ـ مفيش داعي نقطع كل الخيوط مع الشيطان ممكن نحتاج له في يوم.

وفي نكتة من النكات المغرقة في السخرية، ذكروا أن الرئيس عبد الناصر زار دولة من الدول، فقاموا بتخصيص قصر كبير له للإقامة، فقال لهم: «لا.. أنا عاوز بدل سكن».

ونظرًا لما لاقاه الباشوات والأثرياء من الثورة ورجالها، فقد قيل إن واحدا من الباشاوات الذين تم تأميم ممتلكاتهم، أصر على أن يسير في جنازة عبد الناصر، وأخذ يبكي بحرقة مُصرًا على أن يراه، ولما سمحوا له برؤية الجثمان استراح وهدأ وقال: هو فعلاً.. الحمد للـه.

الغلاء واختفاء السلع

ومن نكات اختفاء السلع في عهد الرئيس السادات، نكتة تقول إن مناحم بيجين رئيس وزراء إسرائيل زار مصر، وخرج مع السادات إلى الشوارع مُتخفيين، وعندما لاحظ بيجين ازدحامًا كبيرًا عند إحدى المجمعات

الاستهلاكية، سأل السادات عن سبب الزحام، فقال له السادات: إنَّ الناس يحبون الواجب، هُناك عزاء، وفي هذه المناسبات يجتمع الناس ويقفون طابورًا لعزاء أسرة الفقير.
فذهب بيجين إلى موقع الزحام وسأل أحد الرجال الواقفين:
ـ عزيت؟
فرد الرجل:
ـ لأ ع السكر.

عن الفساد وسنينه

وشاعت خلال عهدي الرئيسين السادات ومبارك العديد من النكات الخاصة بالفساد المالي والسياسي، حتى إنهم قالوا إن الرئيس السادات كان مُجتمِعًا يومًا بوزرائه، فدخل عليهم أحد المستشارين وقال للرئيس:
ـ إلحق يا ريس.. البلد بتتسرق.
فتعجب الرئيس وقال له:
ـ إزاي وكل الحرامية قاعدين هنا!
ومن النكات التي تشير إلى كثرة فرض الرسوم وسهولتها، أن الرئيس الهندي كان في زيارة لمصر، فشكا للرئيس أنور السادات من إطلاق المصريين كلمة «هندي» على أي شخص غبي أو ساذج لا يفهم، وقال إن ذلك يسيء لشخصية المواطن الهندي في العالم العربي، وطيب الرئيس السادات خاطر ضيفه وقال له:
ـ إنني أعتذر عن هذا السلوك المُشين، لذا فقد قررنا أن نفرض غرامة مئة جنيه على كل شخص يسخر من شخص آخر ويقول له أنت «هندي».
ففرح الرئيس الهندي بذلك، وقال للسادات:
ـ وأنا أطلب منكم أن تقوموا بتحويل تلك الغرامات إلى حكومة الهند حتى تستخدمها في التنمية.
فرد السادات قائلاً:
ـ ليه.. هو أنا هندي!
والنكتة وإن كانت تسخر من كثرة استخدام لفظ «هندي» كتعبير عن الطيبة المفرطة أو السذاجة، فإنها تتضمن إشارات واضحة حول سهولة فرض أي رسوم ترغب الحكومة في فرضها، عن طريق القرارات الرئاسية.
أما مبارك فقد تعددت وتباينت النكات التي لاحقته، وكان من بينها نكات تسخر من طول فترة حُكمه، ومنها نكتة تقول: إن اللـه سبحانه وتعالى استدعى ثلاثة رؤساء، هم مبارك وأوباما وبوتين، وأخبرهم أن يخبروا شعوبهم أن يوم القيامة سيكون في الغد، فذهب بوتين لشعبه وقال لهم إن لديه خبرين سيئين، أولهما أن اللـه موجود، وهو ما يعنى أن كل ما آمنوا به من قبل كان باطلاً، والثاني أن العالم سينتهي في الغد. أما أوباما فقد قال لشعبه إن لديه خبرين أحدهما سار والآخر سيئ، أما السار فهو أن اللـه موجود، والخبر السيئ هو أن العالم وحركته سينتهيان في الغد. وبالنسبة لمبارك فقد قال لشعبه إن لديه خبرين جيدين، أولهما أنه التقى اللـه،

والثاني أنه سيحكم مصر حتى يوم القيامة.

نوادر البُخلاء والأشحاء

«اشرب القهوة عند ثروت أباظة في مكتبه،
وبعدها أنا في انتظارك»
توفيق الحكيم لضيوفه في «الأهرام»

إذا كان الشعب المصري معروفا بالكرم والجود، وإذا كان معظم المصريين يحبون الضيوف ويبذلون ما يملكون وما لا يملكون لإسعادهم، فإن هناك البعض الذي يتكلف الإنفاق على نفسه أو أهله أو حتى الآخرين. وقد اعتاد أهل مصر بشكل عام وصف أهل محافظة المنوفية بالاقتصاد والبعد عن الإسراف، ووصف أهل دمياط بالبخل والشح وكراهية الضيوف، ويتمادى ذلك الوصف في بعض الأحيان ليصل إلى أهل محافظة أسيوط، ولا توجد حتى الآن أي أسباب واضحة لتلك الأوصاف، كما أنه لا يمكن اعتبارها حقيقة مؤكدة، بخاصة أن هناك بخلاء كثيرين في محافظات أخرى، وهناك كرماء جدًا في تلك المحافظات الموصومة بالبخل.

إن بعض الأصدقاء من محافظة المنوفية يقدمون تفسيرا تآمريًا لذلك الوصف المعتاد لهم بالبخل، مفاده أنهم يرون أن أهل المنوفية تحديدًا متفوقون ويشغلون مناصب مرموقة في الدولة، ومن بين خمسة رؤساء جمهورية خرج من المنوفية ثلاثة رؤساء، هُم الرئيس محمد أنور السادات، ومحمد حسني مبارك، ثُم مؤخرا الرئيس عبد الفتاح السيسي، كما خرج من المحافظة عشرات الوزراء والمسؤولين والفنانين والمبدعين ورجال الأعمال وأصحاب الشركات الكُبرى، وكل هذا ـ في تصور أهل

المنوفية ـ يدفع أهالي باقي المحافظات للغيرة وإطلاق الأوصاف غير الصحيحة على «المنايفة» افتراءً وتشويهًا.

أما في محافظة دمياط فتزدهر مهن معينة، مثل النجارة وصناعة الأثاث، وهي من المهن التي تدفع العاملين فيها للصبر والدقة، والاستفادة من كل الخامات والإمكانات، وربما يعتبر ذلك البعض نوعًا من الشح.

وفي تصورات أخرى فإن اقتران أهل منطقة بعينها بسمة أو صفة ما، يعود لحكايات وحوادث جرت في الماضي بشكل مُنفرد، بما يحمل التصور الآنيّ، وهو أمر صحيح لفهم السمات الخاصة لكل مجتمع.

على الجانب الآخر يصف المصريون أهل الشرقية بالكرم الشديد، ويروون رواية غريبة تقول إنهم استضافوا جميع ركاب أحد القطارات التي تعطلت خلال مرورها في المحافظة. ويضيف البعض إلى وصف الكرم للشراقوة وصفًا آخرًا سلبيًا هو «السذاجة»، لذلك أطلق عليهم البعض مصطلح «ش. ك. ع» وهو ما يعني «شرقاوي.. كريم.. عبيـ...».

وهناك وصف آخر لصيق بأهالي بورسعيد، هو حب المبالغة وادِّعاء العظمة والقوة، وتنتشر في القصص الشعبي والنكات المصرية حكايات عديدة حول شخص بورسعيدي يدعى «أبو العربي» له خيال واسع، ويدّعي دائمًا كل ما هو غير ممكن، وربما يشبه ذلك الشخص، شخصية «أبو لمعة» الساخرة التي كان يقدمها في الماضي على خشبة المسرح وفي السينما والإذاعة، الفنان الراحل محمد أحمد المصري. ولا توجد كما ذكرنا أسبابا واضحة تفسر تلك الأوصاف، وللأسف الشديد لم يهتم علماء الاجتماع في مصر بتحليل تلك الظاهرة الغريبة.

بين أم كلثوم وغالي

وبالنسبة للبخل فإن هُناك حكايات عديدة اقترنت بكثير من المشاهير، بسبب بخلهم الشديد، وقد شاعت في الأدبيات الحديثة حكايات عديدة وطرائف عجيبة حول البخلاء بين المشاهير، وذكرت كتابات صحفية طرائف متعددة حول أشهر البخلاء، كان من بينها حكايات اقترنت بسيدة الغناء العربي أم كلثوم، والكاتب المسرحي العظيم توفيق الحكيم، والكاتب الساخر عبد الحميد قطامش، والدكتور بطرس غالي سكرتير عام الأمم المتحدة الأسبق، ونحن لسنا بصدد الحكم بصحة أو عدم صحة صفة البخل لدى هؤلاء، فربما تكون بعض الحكايات القصد منها الطرافة وحدها. فمثلا يذكر الكاتب الكبير مصطفى أمين في كتابه «شخصيات لا تُنسى» أن مصر كلها كانت تتصور أن أم كلثوم شحيحة، رغم ذلك فإنها كانت مِعطاءة إلى أبعد الحدود، وكانت تفعل الخير بجود شديد لكن في الخفاء، ويحكي أن أحد الموسيقيين في فرقة أم كلثوم جاء إليه، وشكا له من أن أم كلثوم رفضت إعطاءه خمسة جنيهات، رغم أنه ليس لديه في المنزل أي طعام، وقال له إن معظم أعضاء الفرقة يسمونها «أم إسرائيل» لا أم كلثوم، وسأل مصطفى أمين المطربة الكبيرة عن ذلك فضحكت، وقالت إنها تحب أن يقال عنها بخيلة حتى لا تصبح مطمعًا للنصابين والأفاقين، وقالت له أيضا إن الرجل الذي كان يريد خمسة جنيهات يلعب القمار كل يوم ويخسر أمواله على المائدة، لذا فقد رفضت إعطاءه شيئا.

ويدلل مصطفى أمين على كرم أم كلثوم بحكايات قدمت فيها مساعدات وقروض شهدها بنفسه، كان من بينها إقراضها له عند تأسيس أخبار اليوم، وإقراضها له عندما كان محبوسًا في زمن عبد الناصر، إثر اتهامه بالتخابر مع الولايات المتحدة في القضية الشهيرة.

وشاع عن بطرس غالي الشُح الشديد، وربما يرجع ذلك إلى نكتة شهيرة أطلقها يومًا الكاتب أنيس منصور، وحكايتها أن الرئيس مبارك اتصل يومًا بالكاتب الكبير وقال له:

ـ أنا عازمك على الغدا.

فسأله أنيس منصور عن مكان العزومة، فأخبره بأنه بيت الدكتور بطرس غالي، وكان وقتها وزيرًا للدولة للشؤون الخارجية.

فقال منصور للرئيس مبارك:

ـ بطرس غالي ماعندوش أكل يا ريس، وكل اللي عنده فرخة ومقسمها مربعات زي استاد القاهرة، وبقى له سنتين في منطقة الجزاء.

فضحك الرئيس وأخبر بطرس غالي بما قاله أنيس منصور، فقال غالي إن أنيس تناول الغداء لديه خمس مرات.

وقال أنيس منصور للرئيس إن بطرس غالي كان لديه طباخ ماهر و«طفش» لأنه لم يجد في البيت لا أكلا ولا شربًا.

وقال الرئيس:

ـ يعني مافيش أكل؟ طب اعزمه انت يا أنيس.

فرد أنيس:

ـ أنا على طول باعزمه.
وهكذا لم تخرج الحقيقة عن حكاية طريفة قصها أنيس منصور.
ويروي لنا الكاتب الساخر محمود السعدني جانبا من طرائف عبد الحميد قطامش حول الشح والاقتصاد، في كتابه «مسافر على الرصيف». وكان عبد الحميد قطامش محاميًا وأديبًا وكاتبًا ساخرا، ورغم حبه لجلسات المشاهير والأغنياء، كان قليل الإنفاق. ومن نوادره أنه خرج يومًا مع شلة السعدني، وبعد فترة اكتشف أنه ابتعد كثيرًا عن البيت، ووصل إلى منطقة الجيزة، فقام أصدقاؤه بإيقاف تاكسي له، ودفعوا له ربع جنيه ليقوم بتوصيله إلى السيدة زينب، وبعد أن انطلق التاكسي أمره بالتوقف، ونزل ليهمس في أذن زكريا الحجاوي قائلاً:
ـ «خذ رقم التاكسي يا زكريا، أحسن السائق يقتلني ويأخذ الفلوس».
ويحكي السعدني أيضًا أنه كان يقول له:
ـ لن يغفر اللـه لأمثالنا يا محمود.
فيسأله:
ـ لماذا؟
فيقول له:
ـ لأننا خالفنا ما جاء في اللوح المحفوظ.
فيسأله السعدني:
ـ ماذا في اللوح المحفوظ؟
فيقول له:
ـ المفروض أن نأكل مرة واحدة فقط في اليوم، ونحن نأكل ثلاث مرات في اليوم الواحد. والمفروض أن نبقى أميين، ولكننا تعلمنا. والمفروض أن نبقى فقراء لكننا نريد أن نصبح أثرياء.

الحكيم.. بخيل رغم أنفه

ويعد توفيق الحكيم أشهر الأدباء الموصومين بالبخل، حتى قيل إنه تأخر في الزواج لرغبته في عدم تحمل مسؤولية أسرة. ويحكي الكاتب أنيس منصور أن توفيق الحكيم لم يكن بخيلاً عن غنى، وإنما هو رجل فقير دخله محدود. ومن نوادره أنه عندما كان يعمل في المجلس الأعلى للفنون وله مكتب هناك، كان إذا رأى ضيفًا ينهض ويستقبله عند الباب ويقول له:
ـ اشرب القهوة عند يوسف السباعي وبعد ذلك أنا في انتظارك.
وكان عندما يزوره أحد في جريدة الأهرام يقول له:
ـ اشرب القهوة عند ثروت أباظة أو صلاح طاهر وسوف تجدني في انتظارك.
ومن حكاياته أيضا أنه اشترى لابنه الفنان إسماعيل الحكيم آلة موسيقية بقيمة ثلاثة آلاف جنيه، بشرط أن يدفع ابنه له كل شهر ثلاثمئة جنيه. وكان إسماعيل الحكيم يقول:
ـ إن والدي لا يعرف أنني دفعت القسط المتفق عليه مرة واحدة فقط. أنا أعطيه المبلغ ويعطيه لوالدتي التي تعيده لي مرة أخرى، ولو نظر والدي إلى الفلوس لوجدها كما هي.

وكان توفيق الحكيم إذا شرب قهوة في الأهرام على حسابه فإنه يدفعها نهاية الشهر، ويرفض أن يدفعها يومًا بيوم، وإذا سئل عن ذلك كان يقول:
ـ عذاب يوم ولا كل يوم.
وقالوا إن الرئيس عبد الناصر بعث وفدا ثقافيًا لتمثيل مصر في أحد المؤتمرات، واختار توفيق الحكيم مسؤولا عن الأمور المالية للوفد، وسافر الوفد وشارك أعضاؤه بفعالية في المؤتمر، وعاد الحكيم إلى الرئيس ومعه كامل المبلغ الخاص بالمصروفات دون أن ينقص منه مليم، فسأل الرئيس عن ذلك، فرد الحكيم بأنه لم يحتج إلى مصروفات، لكنه ضحك بشدة عندما وجد جميع أعضاء الوفد يشكون له من قيام الحكيم بحبسهم في غرفهم، وعدم السماح لهم بمشاهدة معالم الدولة المستضيفة للمؤتمر.
وزاره الكاتب أنيس منصور في مرض وفاته في مستشفى المقاولين العرب عام ١٩٨٧، وانتظر أن يقول له شيئًا مُعبرا عن النهاية مثلما قال روسو «أريد أن أرى الشمس لآخر مرة» أو مثلما قال فولتير «دعوني أموت في هدوء»، لكنه فوجئ به يقول له:
ـ من الذي سيدفع تكاليف العلاج؟
ومع كل ذلك كان أنيس منصور يقول:
من السهل أن تكره العقاد...
ومن الصعب طه حسين...
ومن المستحيل توفيق الحكيم؛ لقد أحبه الناس كثيرا.

فيلسوف البخل

ويحكي أنيس منصور كذلك عن الفيلسوف الكبير عبد الرحمن بدوي أنه كان مشهورًا بالبخل، وكان معارفه يدللون على ذلك بقولهم إنه غني ويلبس بذلة واحدة، وكرافتة واحدة، وحزامًا واحدًا. ويذكر أنه دعاه يومًا للغداء في حي الحسين وطلب لحمًا، وكان يأكل كثيرًا بينما كان أنيس منصور لا يأكل اللحم، فاكتفى بأكل الصلصة والعيش، ولم يطلب له طعامًا آخر، وبعد الانتهاء مشيا من الحسين حتى الجيزة، بعد أن قال «بدوي» إنهما لا بد أن يمشيا حتى يتم هضم الطعام.
ويقول أنيس منصور أيضا إنه رغم كونه أحد أقرب تلاميذ العقاد إليه، فإنه لا يعرف مدى صحة ما كان شائعًا حول بخله حتى الآن، لأنه كان مُنصتًا دائمًا، ومتلقيًا خاضعًا للرجل في دروسه كُل جمعة.
وقد شاعت حكايات عديدة حول البخلاء في الوسط الثقافي والأدبي، وجرت نوادر لطيفة لبعض المشاهير مع أساتذة البُخل. ومما يذكر في هذا الصدد أن الشاعر الكبير حافظ إبراهيم، وقد عرف بفقره الشديد، عاش فترة لدى أحد أقربائه البخلاء، وضاق بسوء معاملته وبخله الشديد، فهجره وكتب شعرًا قال فيه:
ثقلت عليك مؤونتي
إني أراها واهية.
فافرح فإني ذاهب

متوجهٌ في داهية.
وقال الشاعر الظريف محمد حسين الجزار، يصف صديقًا بخيلاً:
لا يستطيع يرى رغيفا عنده في البيت يُكسر.
فلو انه صلّى ـ وحاشاهُ ـ لقال: الخبزُ أكبر.

أديب دمياطي

ويحكي السيد الحراني في كتابه «بخلاء يجعلونك تضحك» أن معظم الأدباء الدمايطة عندما نزحوا إلى القاهرة اتهموا، ولو على سبيل الدعابة، بصفة البخل الذي يلتصق بكل دمياطي يحمل اسم دمياط، لذا فإن الشاعر مصطفى الماحي أراد أن يثبت براءته، بعد أن شن عليه زميله الشاعر محمود غنيم حملة شعرية شنعاء، يتهمه فيها بالبخل الشديد، لكونه واحدًا من أهل دمياط، فقال الشاعر محمود غنيم:

قد سمعنا عن بطكم ما سمعنا فأكلنا بالأذن حتى شبعنا

غير أن الأفواه تنطق همسًا

ما عرفنا لذلك البط معنى

فقام الماحي بإعداد مائدة ضخمة من البط الدمياطي بجميع أشكاله، المشوي والمحمّر والمسلوق، ودعا إليها كبار الأدباء والشعراء، ومنهم غنيم نفسه، وبعد الانتهاء من تلك الوليمة أعلن الماحي أنه أعد تلك الوليمة لينفي صفة البخل عنه وعن شعب دمياط، فارتجل «غنيم» قصيدة طويلة ساخرة يتمادى فيها باتهامه للشاعر مصطفى الماحي بالبخل، حتى قال بأن نابليون بجحافله لا يستطيع أن يقهر البخل الدمياطي، وكان ذلك يدور في جو من الطرافة واللطف.

في السينما

ولقد استعان كثير من أهل الفن بشخصية البخيل في الكوميديا، وكتب الفنان الراحل فريد شوقي مسلسلاً شهيرًا، قام ببطولته هو وكريمة مختار ومحمد هنيدي ووائل نور وأخرجه حسين عمارة، حمل اسم «البخيل وأنا»، صور فيه شخصية البخيل أفضل تصوير، إذ يعيش الرجل وأسرته بأقل مصروفات، ويقتصر طعامهم اليومي على الفول والعسل الأسود الذي يقوم بزيادته بالماء، ويشعر جميع أبناؤه بالحرمان الشديد، حتى إذا ما مات البخيل انطلقوا إلى الدنيا ليتمتعوا بكل ما ادخره أبوهم.
ولقد مثل الفنان القدير استيفان روستي شخصية البخيل في أكثر من فيلم، وكان من أبرز الشخصيات التي قدمها شخصية «الخواجة كوهين» الذي يبعث ابنه ليقترض من الجيران كل شيء عندما يدعوهم للعشاء، وقد أراد توريط جيرانه في الزواج بإحدى بناته، فادعى وجود ابن غير شرعي لابنته من أحد هؤلاء الجيران.
وظهر اليهودي مرة أخرى مرادفا للبخيل في مسرحية «حسن ومرقص وكوهين»، إذ قدم الفنان عباس فارس شخصية اليهودي البخيل في مسرحية من إخراج سعيد أبو السعد وبطولة عادل خيري عام ١٩٦٠، ثم تم تقديم نفس العمل بنفس الاسم في فيلم عام ١٩٥٤، قام ببطولته الفنان

الرائع نجيب الريحاني، وقدم شخصية الخواجة كوهين الفنان الكبير استيفان روستي، وهو بالمناسبة فنان مصري يهودي من أصل إيطالي، توفي عام ١٩٦٤.

كما قدم الفنان زكي رستم دور البخيل بشكل باهر في فيلم «إجازة صيف» عام ١٩٦٧ من إخراج سعد عرفة، وهو ما عبر تعبيرًا جيدًا عن الرجل الشحيح على نفسه وعلى ابنته.

بصمات الأجانب على مصر الملكية

«لا يمكن أن نقف صامتين على اعتداءات المستعمر على وطننا الثاني»
أندريا مستكاكي، أحد ممثلي الجالية اليونانية، في مجلة الاثنين أكتوبر ١٩٥١

في الأغنية الشهيرة «ذكريات» يغني عبد الحليم حافظ في براءة مصطنعة «واحنا في مصر الجديدة، ده كان زمان. الجيران من كل جانب.. كانوا أكترهم أجانب» كأن وجود الأجانب مؤشر هيمنة ودليل اختراق وسيطرة.
وكان من الغالب في الذاكرة الجمعية أن الأجانب مستغلون وباحثون عن منافع ومكاسب ذاتية، دون أي استفادة للمجتمع المحيط بهم، حتى إن الشاعر بيرم التونسي يقول في إحدى قصائده: «يعنى الأجانب تنهبنا/ وتدخل بابنا/ بالزور وناوية على خرابنا/ وتعيش في أمان». وفي واقع الأمر لم يكن ذلك صحيحًا، ورغم المكاسب التي حققتها الجاليات الأجنبية في مصر قبل ١٩٥٢، فإن لتلك الجاليات أيادي بيضاء على العمران والتنمية والثقافة، ولولا تلك الجاليات ما كان لدينا معمار جميل مثل الذي نراه في وسط القاهرة، أو طرز أوروبية مثل الكائنة في حي مصر الجديدة، وبعض المناطق القديمة في الإسكندرية، ولولاهم لما كانت لدينا مهن وصناعات معينة ساهمت في تنمية الاقتصاد المصري، وساعدت على تنوعه وتطوره.
الأجانب لم يكونوا شرًا محضًا وخطرًا داهما على مصر كما حاول نظام يوليو أن يقنعنا، ففي كثير من الأحيان أضافوا وطوروا وأنجزوا ما استفادت به مصر في الماضي، وما زالت تستفيد به إلى الآن.
لقد دخلت كثير من الجاليات الأوروبية إلى مصر، خلال عهد الخديوي إسماعيل الذي حاول أن يجعل مصر قطعة من أوروبا، وهو بلا شك ما كلفه ديونا ضخمة تحملتها خزانة الدولة. وقبل ذلك بعقود استقبلت مصر موجات متتالية من هجرات الشوام واليهود الذين توغلوا وانتشروا في القطاعات الاقتصادية المؤثرة، كما استقبلت في موجات متتالية عائلات وأسرًا أرمينية فرت من جحيم الحروب.
إن المشروعات الأولى لا شك كانت استصلاح الأراضي الزراعية، حتى إن هناك دراسة تاريخية هامة أعدها الباحث الاقتصادي الراحل أنس مصطفى كامل، تشير إلى أن مساحة الأراضي الزراعية التي كان يمتلكها الأجانب في مصر عام ١٨٤٠ بلغ نحو ٢٥ ألف فدان، وقد تضاعف الرقم في عام ١٨٨٧ ليبلغ ٢٢٥ ألف فدان، ثم ارتفع مرة أخرى إلى ٦٢٢ ألف فدان في عام ١٩٠٦.
وقد ركزت الجاليات الأجنبية واليهود تركيزًا كبيرًا على المشروعات المالية، مثل المصارف والبنوك، ثم اتجهوا إلى القطاع الصناعي، بخاصة صناعة السكر والزيوت، وامتدت أنشطتهم إلى العقارات واستصلاح الأراضي الزراعية والتجارة والنقل.
وضمت الجاليات الأوروبية كثيرا من اليهود الفرنسيين والإيطاليين واليونانيين، وبعض البلجيك والنمساويين، وجماعات من الأرمن، بخاصة الهاربين من مذابح الأتراك.
وكانت من بين العائلات الشهيرة عائلة سوارس، وهي عائلة إيطالية جاءت من ليفورنو واستقرت في مصر، وحصل عدد من أفرادها على الجنسية الفرنسية، وقد نجحت تلك العائلة، بالتعاون مع عائلات قطّاوي وبعض المصارف الفرنسية، في تأسيس البنك العقاري المصري عام ١٨٨٠. كما

أسست نفس العائلة شركة مياه طنطا، ثم شركة لنقل الركاب حملت اسم العائلة واشتهرت بين العامة لسنوات طويلة.
أما عائلة قطّاوي فهي عائلة يهودية كبيرة، حصل الكثير من أفرادها على الجنسية النمساوية بعد منح عميدها يعقوب لقب «البارون» من الإمبراطورية النمساوية، وهو ذاته الرجل الذي تولى نظارة الخزانة (وزارة المالية) في أواخر عهد الخديوي عباس الأول. وقد ساهمت هذه العائلة في عدة مشروعات مالية واستثمارية كبرى في صعيد ودلتا مصر، ومن بينها مشروعات السكة الحديد.
أما الجالية البريطانية فقد كانت أكثر الجاليات استفادة بالامتيازات بحكم الاحتلال البريطاني لمصر، ومن بين العائلات البريطانية التي عاشت في مصر عائلة رولو التي كان لها وجود كبير في استيراد وتجار الصبغة، وشاركت في تأسيس البنك الأهلي المصري، كما عملت بتجارة الأقطان والبن والماشية.
وهناك عائلة مِنَسَّه أو منشه، وهي عائلة نزحت من إسبانيا خلال الاضطهاد المسيحي للمسلمين واليهود، واستقرت بالقاهرة حيث عمل أفرادها في المراباة والتجارة، وكان لهم صيت شائع في الأسواق. وقد أسس يعقوب مِنسّه بنكًا تجاريًا باسم البنك التركي، وحصل على الحماية النمساوية لأفراد عائلته، باعتبارهم رعايا أجانب.
أما الجالية اليونانية فقد استقر معظم أفرادها في الإسكندرية وبعض مدن الدلتا، وتركزت أعمالها في الصناعة والتجارة والسياحة والمطاعم، ومن أشهر رموزها سالفاجو الذي أنشأ مدرسة صناعية كبرى في الإسكندرية نهاية القرن التاسع عشر، وقام زرفودا بإنشاء مدرسة أخرى ثانوية في الإسكندرية.
وكان هناك بعض اليونانيين الذين استقرت بهم الحال في القاهرة، ومن بينهم تيوخاري كوتسيكا، وهو رجل صناعة كبير وعظيم أدخل صناعة الكحول إلى مصر، وقدرت ثروته في بداية القرن العشرين بنحو أربعة ملايين جنيه، وقد ذكر عنه أنه أنشأ مستشفى كبيرًا باسمه، حتى إن هناك محطة على كورنيش القاهرة ما زالت تحمل اسمه إلى اليوم، وهي محطة «كوتسكا».
وكان من اللافت أن تنشر مجلة الاثنين في شهر أكتوبر سنة ١٩٥١، في الوقت الذي اندلعت فيه حرب الفدائيين ضد جنود الاحتلال البريطاني في منطقة قناة السويس، موضوعًا بعنوان «يونانيون يهتفون لملك مصر والسودان» ذكرت فيه أن ٩٠٠ شاب من اليونانيين الذين كانوا يعملون في معسكرات جيش الاحتلال، تركوا أعمالهم تضامنا مع المصريين، باعتبار أن مصر هي وطنهم الثاني. وأضافت أنهم اجتمعوا للتشاور فيما يجب عليهم فعله، واتفقوا على إعلان الفداء والكفاح مع المصريين، هاتفين بحياة الملك فاروق. ونقلت المجلة عن أندريا مستكاكي، أحد منظمي الاجتماع من اليونانيين، دعوته لزملائه إلى الوقوف دقيقة حدادًا على أرواح الشهداء المصريين، وأعلن أن اليونانيين لا يمكن أن يقفوا صامتين إزاء الاعتداءات الوحشية التي ينزلها المستعمرون بالأبرياء العُزل، من أبناء مصر الناهضة دفاعا عن استقلالها.

وتجدر الإشارة إلى أن الجالية اليونانية تحديدا هي التي استمر مرشدوها للعمل في قناة السويس، بعد إعلان جمال عبد الناصر تأميمها رسميا في ٢٦ يوليو سنة ١٩٥٦.
كما كان للجالية البلجيكية، وعميدها البارون إدوارد امبان، إسهامات عظيمة في تطوير العمارة المصرية وإنشاء الأحياء السكنية، وقد استطاع الرجل جذب عدد من الأثرياء البلجيك للاستثمار في مصر، في قطاعات المرافق والصرف الصحي والفنادق وملاعب الجولف والمنتجعات الراقية، فضلا عن إنشاء شركة ترومواي مصر.
وينسب إلى البلجيكى هنرى نوس احداث أكبر عملية تطوير لصناعة السكر فى مصر بداية القرن العشرين، كما أنه كان أول رئيس لاحاد الصناعات المصرية والذى تم تأسيسه سنة ١٩٢٢. وعمل نوس فى عدد من الشركات الكبرى وتوفى سنة ١٩٣٨ عن ثروة كبيرة ومساهمات فى عدة شركات صناعية.
ولولا الأجانب ما كانت مصر قد عرفت البنوك التجارية الحديثة، وما كانت نهضة مصر الاقتصادية قد ولدت على يد طلعت حرب باشا، ولولاهم ما أنشئت البورصة والشركات الكبرى في مختلف القطاعات.
ومن المعروف أن الأجانب شاركوا في كثير من الأعمال والحرف التي لم يكن لدى المصريين خبرات تُذكر فيها، وتكشف وثائق أرشيفية من وزارة الداخلية استقدام عدد كبير من الأوروبيين للعمل في وظائف مساعدين لضباط الشرطة، وهي الوظيفة التي عرفت باسم «كونستابل»، وكان معظمهم من إنجلترا وإيرلندا وإيطاليا. كذلك فإن وثائق وزارة المعارف (التعليم حاليًا) تكشف الاستعانة بمدرسات بريطانيات وفرنسيات لتدريس اللغات الأجنبية في المدارس المختلفة، بدءًا من سنوات الاحتلال الأولى.
والواضح، طبقا لمذكرات ألبرت فارمان القنصل الأمريكي بالقاهرة والتي تناولت مشاهداته في مصر وقت دخول الإنجليز إلى مصر، فإن الجاليات الأوروبية كان لها حضور قوي وكبير في مصر خلال الربع الأخير من القرن التاسع عشر، بخاصة في مجال الاقتصاد، لكنه يقول في هذا الصدد إن الأمريكيين لم تكن لهم جالية في مصر، واقتصر دورهم على زيارات ومشاهدات لبعض الزوار والرحالة.
والحقيقة أنه من خلال بحث دقيق في تاريخ الاقتصاد المصري الحديث، نكتشف أن حجم ما تركه الأجانب من بصمات على بلادنا كبير وعظيم، وهو ما يُكذّب كُل ما حاولوا صبّه في أدمغتنا لتبرير مذابح التأميم الناصرية خلال الستينات من القرن الماضي، والتي طالت مؤسسات وشركات لا حصر لها مملوكة لأجانب ومصريين على السواء. لقد هالني أن أجد أيادي بيضاء عديدة للأجانب على الاقتصاد المصري. رُبما ربح كثيرون من مصر، لكن الرابح الأكبر في تصوري الآن كان المصريين الذين تعلموا فنونًا جديدة في الإنتاج والتسويق والترويج والبيع. وحسبنا هُنا أن نقول إننا تعلمنا من الشوام صنوف البيع، ومن اليونانيين عرفنا أصول الفندقة، ومع اليهود تدربنا على احترام

الكلمة والبيع بالآجل، ومع البلجيك رأينا أسس التنظيم والتخطيط، سواء في المعمار أو غيره.
ويحكي الباحث الدؤوب مُصطفى بيومي في كتابه عن سيرة «سمعان صيدناوي» أحد رواد الاستثمار القدامى في مصر، أن صاحب المحلات الشهيرة المُتخصصة في الملابس، الذي جاء إلى مصر من الشام، كان يقف أمام محلاته من الخارج، وكان عندما يجد أحد الزائرين يدخل إلى المحل ويخرج دون شراء يذهب إليه ويُصافحه ويسأله عما لم يعجبه داخل المحل، وإن كان أسلوب العرض غير مُناسب، أو حديث البائع غير منطقي، أو السلعة نفسها غير جاذبة.

إدوارد امبان عاشق النيل

والواقع فإن الذي بنى عمائر مصر الحديثة كان في الأصل بلجيكيًا، ومصر التي نقصد هي مصر الجديدة بمعمارها الجميل، وتخطيطها المتناسق، وشوارعها المتعامدة كمربعات ملتحمة، والمنفتحة على الشمس لأنها كانت يوما من الأيام مدينة الشمس.
ويمكن القول إن هذا الرجل كان واحدًا من عباقرة الإبداع، وعاشقي المغامرة، واسمه إدوارد امبان، وولد في بلجيكا عام ١٨٥٢. ولا بد أن مَن يُطالع صور الرجل يلمح بريقًا خاطفًا في عينيه يعني عمقًا في التفكير، وسرعة في اتخاذ القرار، وحسمًا في العمل. شاربه الكث يحمل كثير من الوقار والجدية والرصانة، ووجهه الهادئ دون ابتسام يوحي بصوفية غريبة يندر أن توجد مع الأثرياء وصانعي الثروات.
المتاح عن طفولته من معلومات ضئيل، لكن ثمة إشارات متكررة إلى أنه ولد بعاهة بسيطة عبارة عن عرج في قدميه. ولأن أمثالنا الشعبية تترجم كل محنة للإنسان وتحولها إلى منحة فتقول «إن كل ذي عاهة جبار» يمكن قراءة شخصية إدوارد امبان من خلال العرج الذي ولد به، والذي تطور بعد ذلك لحالات شبيهة بالصرع.
ربما كان ذلك هو ناثر بذور العبقرية في عقل الشاب الطموح الذي بنى سلمه للنجاح وهو ما زال صغيرا، كرسام هندسي في شركة سكة حديد أوروبية. في تلك السنوات كانت بلجيكا واحدة من دول أوروبا المتطورة، وكان للكفاءة والإتقان كثير من التقدير، بصرف النظر عن عمر الشخص المُتقن، لذا فقد ترك الرجل بصماته في تصميم خطوط السكة الحديد، التي منحته شهرة جيدة أهلته للانتقال بين عدة شركات، ثم قرر العمل مستقلاً فأسس شركة للسكة الحديد استطاعت أن تنشئ مترو باريس عام ١٨٧٨، وهو ما كان له ردود أفعال حسنة، وتم منحه لقب «بارون».
ولأن صناعة الثروة مُتعة، فقد واصل الرجل تنمية إمبراطوريته، فأنشأ خطوط سكة حديد في كثير من دول أوروبا، ثم انتقل إلى المستعمرات الأوروبية في إفريقيا والشرق، وعاش عدة سنوات في الهند التي أعجبته حضارتها، وقرّبته للأصالة، ودفعته للقراءة بعمق في التاريخ القديم.
ومن المحتمل أن تكون تلك أول علاقته بمصر، عندما تعرّف على الحضارة

الفرعونية القديمة، وقرر أن يذهب إلى مصر. لقد جاءت الفرصة في مناقصة معلنة لمد خط سكة حديد بين المنصورة والمطرية، وتقدمت شركة البارون بعطاء، ورغم عدم فوزها به أصر على الذهاب إلى مصر بهدف المعرفة والاكتشاف، لا بهدف الاستثمار.
ولم تكد قدمه تطأ أرض مصر حتى شعر أنها وطنه الحقيقي، وأن مقبرته يجب أن تكون فوق ثراها. لا إيضاح لسر هذا الافتتان الغريب، ولا أسباب مُقنعة لهذا الغرام المفاجئ الذي حير كثيرًا ممن كتبوا عن البارون امبان، حتى إن بعضهم ذهب إلى أنه أحب فتاة في مصر تدعى إيفيت بغدادلي، وأصر على أن يبقى في مصر ويدفن فيها.
في ١٩٠٥ زار، مع صديق له أرمني يدعى باغوص نوبار، صحراء العباسية التي قرأ أنها مقر المدينة القديمة التي أنشأها الفراعنة باسم «هيليوبوليس» بمعنى «مدينة الشمس»، وهاله أنها جدباء صامتة لا حياة فيها، وهنا فقد تقدما معا بطلب إلى الحكومة المصرية لإنشاء أحياء سكنية جديدة، وقد عرضا شراء أراضي صحراء العباسية.
وقد ذكر البعض أن امبان وصديقه حصلا على مئات الأفدنة بسعر جنيه واحد للفدان، وهو ما لم أتحقق من صحته، وإن كان ذلك ممكنا عند بيع أراض صحراوية.
وكان الرجل يمتلك عقلية فذة قادرة على الوصول إلى حلول غير تقليدية للمشكلات التي تواجهه، لذا فمع إحجام الناس عن اشتراء الأراضي والوحدات التي أنشأها امبان في مدينته الجديدة، اضطر إلى عمل حملات ترويجية غير تقليدية، من خلال إنشائه لفندق جديد لاستيعاب السياح الأوروبيين القادمين إلى مصر، وهو فندق هيليوبوليس، ثم أنشأ الرجل بعد ذلك قصرًا فاخرًا له هو المعروف حتى الآن باسمه، وقد أنشئ على الطراز المعماري الهندي الذي يعتمد على الأعمدة ذات التيجان الأسطورية.
كما قام البارون امبان بمد خط سكة حديد كهربائي (ترام) بالمنطقة، وإقامة عدة حدائق ومتنزهات، وهو ما جعل المنطقة جاذبة للجاليات الأجنبية والأسر العريقة وكبرى العائلات السياسية، وذكرت الصحف أن سعر الفدان بلغ في ذلك الوقت ما يقرب من ثلاثين ألف جنيه.
وقد استمرت أعمال ومشروعات البارون امبان في أوروبا، وظل يتنقل بين دول عدة، لكنه كتب وصية بأن يدفن في مصر أينما كانت وفاته، وبالفعل أصيب الرجل بالسرطان ومات في بلجيكا، وعمره يقترب من الثمانين في ٢٢ يوليو عام ١٩٢٩، ونقل إلى القاهرة ليدفن أسفل كنيسة البازليك بمصر الجديدة.
وقد ذكرت الصحف أن ثروته وقت الوفاة كانت تقدر بنحو ٢٥ مليون جنيه، وهو ما جعله أثرى أثرياء مصر في ذلك الوقت.

وقائع مُصادرات مجهولة

«إن سلامة موسى معروف بتطرفه في المبادئ الاشتراكية وخروجه عن كل الأديان»

من تقرير وزارة الداخلية عن مبررات إغلاق صحيفة «المصري» سنة ١٩٣٠

الكلمة رصاصة. لغم. سيف مرفوع فوق هامات الكبار. عواصف رعدية تهتز لها نوافذ الحُكام، لذا فهي مُطاردة دائما، ومرصودة أبدا، ومُتهمة في كثير من الأحيان. إن السُلطة ـ أي سُلطة ـ لا تحتمل النقد ولا ترضى بالقدح ويظُن حائزوها أنهم لا يخطئون وأن جميع مُخالفيهم خونة ومتآمرون.
وحسبنا ما كتبه نزار قباني قبل عقود مُسجلا حال الحُكام الذين يحسبون أنهم مُنزهون عن الخطأ، إذ يقول:
«في حارتنا ديك عصبي مجنون/
يخطب يومًا كالحجاج/
ويمشي زهوًا كالمأمون/
يصرخ من مئذنة الجامع:/
يا سبحاني يا سبحاني./
فأنا الدولة والقانون».
إنَّ السُلطة دائما تُزعجها الكلمة، والحكايات عديدة، لكن ما نقدمه الآن هو فصل في هذا الصدد لم يُنشر من قبل، يخُص الكاتب الراحل سلامة موسى. هو فصل من فصول مُصادرة الصُحف تُثبته وثائق جديدة تُنشر للمرة الأولى، وصلت إلينا ضمن أوراق مكتب «سابا حبشي ومُصطفى مرعي» المحاميين لدى المحاكم المُختلطة.

وقائع مُصادرة

بداية، تجدر الإشارة إلى أن سلامة موسى واحد من أهم مُثقفينا في التاريخ الحديث، إذ عمل صحفيًا ومُترجمًا وكاتبًا حُرًا رغم توجهاته الاشتراكية، وقد ولد سنة ١٨٨٧ وتوفي سنة ١٩٥٨، وبينهما كتب تاريخًا من الثقافة والمعارف ودعوات الإصلاح.
الأوراق الخاصة تكشف لنا كيف تعرضت إصدارات صحفية للرجل للمصادرة، لأنها اختلفت مع السائد والرأي العام، ولأن مُصدرَها عُرف بأنه مُختلف ومشاغب وغير قابل للسيطرة من جانب أجهزة السُلطة.
إن الدعوى التي أقامها سابا حبشي ومصطفى مرعي المحاميان، وأنذرا فيها وزير الداخلية في ثلاثينات القرن الشعرين، تكشف لنا تفاصيل القصة كاملة، ففي عام ١٩٣٠ كان سلامة موسى الكاتب والصحفي يُصدر مجلتين، المصري والمجلة الجديدة، وكانت «المصري» تصدر أسبوعية وتطبع نحو ٢٠ ألف نسخة، وكانت «المجلة الجديدة» تصدر شهرية، وكان يطبع منها نحو ١٢ ألف نسخة. وتشير الدعوى إلى أن سلامة موسى تكلف مصروفات باهظة في إعداد المجلتين، واضطر إلى اشتراء مطبعة بـ٣٥٠٠ جنيه حتى يضمن طباعة المجلتين في مواعيدهما. وتضيف الدعوى أن سلامة موسى انتهج في مجلتيه الدفاع عن الحريات وضرورة إعادة النظام البرلماني، وكان جزاؤه على ذلك أن قامت الحكومة بتعطيل مجلة المصري تعطيلاً نهائيا، منتصف شهر يونيو ١٩٣٠، وكانت المجلة تدر على صاحبها عائدًا شهريا قدره ٧٠ جنيهًا. كما قامت الحكومة بتعطيل «المجلة الجديدة» في أغسطس سنة ١٩٣١ لمدة ثلاث سنوات، وكانت تدر عليه نحو ٥٠ جنيهًا شهريًا.

وتضيف الدعوى أنه «بلغ من العنت بالوزارة ـ وزارة الداخليةـ أن وصلت إلى حد غير مألوف في النكاية، إذ اختارت لتنفيذ أمر التعطيل الصادر عن المجلة الجديدة منتصف الساعة الثالثة صباحًا من اليوم الذي كان العدد يطبع فيه، وتم التنفيذ في منزل الطالب في ظروف غير مألوفة».
وتقول الأوراق إن سلامة موسى «حاول جهده في عدم إيجاد أي حجة للوزارة القائمة بالأمر لتتذرع به ضده، اللهم إلا حرية الآراء التي كان يدافع عنها صاحب الدعوى، ولم يكن بوسعه أن يتنازل عنها بأي ثمن».

المطالبة بالتعويض

وتقول الدعوى أيضا إن سلامة موسى «دفع لوزارة الداخلية مبلغ ١٥٠ جنيهًا كتأمين عن المجلة، رغم كون المجلة شهرية، وكان الوحيد الذي دفع ذلك المبلغ، ما يدل على كونه مقصودا بالعنت من جانب الوزارة، دون غيره من أصحاب المجلات الشهرية التي أعفيت من سريان القانون عليها».
وتضيف أيضا: «وبما أن الطالب (سلامة موسى) قد أصابه ضرر بالغ من تعطيل مجلتيه المبينتين في الدعوى، وهما المجلة الجديدة والمصري، فلا يقل ما أصابه من الضرر وما يستحقه من التعويض بالنسبة لتعطيل مجلة المصري عن ١٥٠٠ جنيه، بينما لا يقل التعويض عن تعطيل المجلة الجديدة عن ألف جنيه، فضلا عن خسارته لمطبعته التي اشتراها بمبلغ ٢٥٠٠ جنيه وصارت لا تساوي أكثر من ألف جنيه. ويضاف إلى ذلك ما اضطر الطالب لدفعه من غرامات عديدة».
وتضيف الدعوى: «وبما أن مصلحة الصحافة صرحت لصحفيين بإطلاق اسم المصري على صحيفة يومية، في حين أن هذا الاسم من حق الطالب (سلامة موسى) لأنه اسم صحيفته الأولى، فإنه تم إعلان حضرة صاحب المقام الرفيع وزير الداخلية بإلزامه بدفع مبلغ ٥٣٥٠ جنيها مع المصاريف ومقابل أتعاب المحاماة، مع شمول الحكم بالنفاذ المسجل بغير كفالة».
والمثير في هذه الدعوى أنه قد حددت جلسة لنظر القضية، وقدمت وزارة الداخلية حافظة مُستندات تضمنت طلب سلامة موسى الحصول على ترخيص في ٢٩ سبتمبر ١٩٢٩ باسم «المجلة الجديدة»، ثُم تعهدًا من مقدم الترخيص بعدم نشر أي موضوعات سياسية أو إدارية أو دينية، ثُم خطابًا من وكيل وزارة الداخلية بالترخيص بإصدار المجلة، على أن تكون مقصورة على الموضوعات الأدبية. وقدمت وزارة الداخلية أيضا مُستندات تتضمن خطابًا من وكيل الجامع الأزهر إلى وزارة الداخلية، يتضمن نشر أمور دينية.
أما اللافت في حافظة المُستندات، فكان خطاب تحريات أجرته وزارة الداخلية بشأن صاحب المجلتين، وقد أفاد بأن «المدعي (سلامة موسى) معروف عنه شدة تطرفه في المبادئ الاشتراكية وخروجه على تعاليم الأديان عامة»، وهو ما يعني أن استخدام وزارة الداخلية سلاح التشهير والوصم بمعاداة الدين، كان سلاحًا قديما ومُتكررا لدى أجهزة الأمن في تعاملها مع خصوم السُلطة والمطالبين بالحريات.
وقدمت وزارة الداخلية قرارها بتعطيل المجلة، والذي جاء بسبب قيامها في

العدد ١٤ الصادر بتاريخ ٤ ديسمبر ١٩٣٠ بنشر مقالات وفصولا تعرضت للبحث في السياسة بما يثير الخواطر، لأنها جريدة أدبية فقط.
وليس مفهومًا معنى عبارة «التعرض للسياسة بما يثير الخواطر» لأن الدستور كفل للناس حُرية الرأي وتبني وجهات نظر سياسية، ومُجرد اعتبار إعلان تلك الآراء بمثابة إثارة للخواطر، هو ضعف منطق من جانب المؤسسة الأمنية القائمة في ذلك الوقت.
وسلامة موسى واحد من رواد النهضة المصرية، وهو كاتب انفتاحي له ميول اشتراكية، ولد في إحدى قرى الزقازيق، وكان ممن اطلعوا في وقت باكر على ثقافات وعلوم الغرب، عندما سافر إلى أوروبا، ونادى بتبسيط اللغة العربية وكان من أوائل من كتبوا بالعامية، واهتم بأصول الحضارة المصرية القديمة. وقد تتلمذ على يديه جيل كامل من المثقفين، أبرزهم الكاتب الكبير نجيب محفوظ. وأصدر سلامة موسى عام ١٩١٠ كتابه الأول المُسمى «مقدمة السوبرمان» والذي طرح فيه أفكاره حول ضرورة تطوير المجتمع، والاستفادة بأوروبا والغرب، خصوصا في مجال الثقافة والعلوم. وأسس سلامة موسى الحزب الشيوعي عام ١٩٢١ وكتب وترجم عشرات الكتب في مختلف المجالات، وأصدر عدة مجلات وصحف ودوريات وساهم بشكل كبير في حركة الترجمة، وكان من أوائل من طالبوا بتأميم قناة السويس كشركة مساهمة مصرية، ورحل الرجل في أغسطس سنة ١٩٥٨ مُخلفا تراثا فكريا عظيما ومؤثرا.
والمُهم أن ما جرى مع سلامة موسى في مجلتيه جرى، من قبل ومن بعد، مع كثير من الكُتاب والمُثقفين والصحفيين، فمنذ عرفت الصحافة طريقها إلى مِصر والحُكام يعتبرونها شرًا محضًا، وخروجًا دائمًا عن الآداب.
وقد شهد تاريخ حرية التعبير في مصر أزمات عديدة، طبقا لقوانين وتشريعات وفرمانات سُلطانية، لأن جميع الحُكام اعتبروا أنفسهم مُقدسين ومُنزهين، واعتبروا كُل ناقد ورافض ومختلف عدوًا أو مُجرمًا عاتي الإجرام.

العيب في الذات الحاكمة

ويذكر لنا الدكتور يونان لبيب رزق، في كتابه «العيب في ذات أفنديناا»، استعراضًا سريعًا لموقف السُلطة في مصر من حرية الرأي والتعبير، على مدى نحو قرن وربع. ويمكن اختصار ذلك تباعًا إلى محاكمات ووقائع جرت عبر عصور الحُكام المُختلفة، ففي عهد الخديوي إسماعيل، وقبل خلعه بثلاثة أشهر، تم تعطيل جريدة «صدى الأهرام» لمدة ١٥ يومًا، بسبب مقال مكتوب تحت عنوان «ظُلم الفلاح»، وتم القبض على بشارة تكلا، وظل مسجونا ثلاثة أيام حتى تدخل توفيق نجل الخديوي إسماعيل للإفراج عنه.
وفيما بعد قُبض على الصحفي أحمد حلمي ـ وهو الذي سُمي على اسمه موقف السيارات الشهير بوسط القاهرة ـ لأنه كتب في جريدة «القُطر المصري» مقالاً يتساءل فيه عن الحق الذي يمنح لأسرة محمد علي ٣٥٠ ألف ليرة سنويا من الخزينة المصرية، واعتبرت السُلطة مقال «حلمي» طعنا مُباشرا في الخديوي عباس حلمي، وقبضت في مارس ١٩٠٩ على الكاتب،

ووجهت له تهمة العيب في حضرة الخديوي. وخلال المحاكمة تم استعراض مقالات عديدة للرجل يهاجم فيها أسرة محمد علي، وصدر الحكم ضده بالسجن لمدة عشرة أشهر، واستمر «حلمي» في إصدار جريدته وكتابة مقالات حادة ومُنتقدة من داخل سجنه، ما دفع الحكومة إلى إعلان إغلاق جريدة «القُطر المصري» تماما في ٨ يناير ١٩١٠.

واللافت أن اللجنة الملكية التي وضعت دستور ١٩٢٣، هي ذاتها التي أعدت قانونا بعد ذلك باسم «العيب في الذات الملكية»، وقد صدر في نفس العام، وهو ما جاء اتساقا مع المادة الـ٢٣ من الدستور المصري في ذلك الحين، والتي وصفت الملك بأنه «هو رئيس الدولة الأعلى وذاته لا تُمسّ». وكان أشهر من تمت محاكمته بهذا التشريع الكاتب الكبير عباس محمود العقاد، الذي انفعل في إحدى جلسات مجلس النواب، مُعلنًا أنه على استعداد لسحق أكبر رأس في البلد في سبيل صيانة الدستور وحمايته. وقد جرت محاكمة الكاتب على عدد من مقالاته التي نشرها في جريدة «المؤيد الجديد» وكان مكرم عبيد هو مُحاميه بالقضية، إلا أن الحكم صدر في النهاية بحبس «العقاد» تسعة أشهر، ومحمد فهمي الخضري صاحب «المؤيد الجديد» ستة أشهر.

وفي مايو ١٩٣٨ قُبض على الدكتور رياض شمس، بسبب مقال كتبه في جريدة «المصري» بعنوان «نظام تعس وعهد أسود»، ثم وجهت له ولكاتب آخر بنفس الجريدة هو محمد شافعي البنا تهمة العيب في الذات الملكية، وصدر الحكم في العام التالي بتعطيل «المصري» لمدة شهر، وسجن صاحبها لمدة سنة. وفي ١٩٤٤ تمت محاكمة صاحب جريدة «البلاغ» محمد عبد القادر حمزة، بسبب ترديد صفات «الديكتاتورية»، وتم حبس الرجل وإسماعيل عبد المولى رئيس التحرير لمدة شهر، مع تعطيل الجريدة شهرا.

وفيما بعد، الأقاويل التي تناولت الأميرة فتحية، شقيقة الملك فاروق، بعد زواجها برياض غالي، الدبلوماسي القبطي، وهروبهما، دفعت الملك إلى إصدار قانون يُجرم نشر أي أخبار أو رسوم أو صور تخص الأسرة المالكة أو أيًا من أفرادها، وقد جرت محاكمات عديدة لكتاب وصحفيين بهذا الشأن، كان أشهرها محاكمة أحمد حسين، والحكم عليه بالسجن لمدة سنة ونصف السنة.

أما ثوار يوليو فقد رفضوا منطق المحاكمات، ولجأوا إلى فرض رقابة صارمة على الصُحف، وأعقب ذلك إصدار مجموعة من الصحف، مثل الجمهورية والشعب والمساء، قبل أن يصدر قانون تنظيم الصحافة سنة ١٩٦٠ وتؤول بموجبه ملكية كل الصحف إلى الدولة، وكانت النتيجة الطبيعية لذلك أنه لم تعد هناك فرصة للعيب في ذات الرئيس.

المذكرات.. تاريخ نصف الحقيقة

«إنكار الحقائق لا يُغيرها»
نجيب محفوظ

الكلمة لحظة بوح، وصدق، ونقاء، لكنها في بعض الأحيان تتحول إلى أداة تجميل، ووسيلة خداع وتضليل، وافتراء. هكذا كانت الحال في كثير من مذكرات الزعماء والساسة والعسكريين، في مصر والشرق العربي. ورغم لحظات الصراحة المحدودة التي حاول بعض الزعماء تضمينها مذكراتهم، هناك عبارات خيلاء، وحكايات فخر، وشهادات تمجيد للذات، بدءا من الزعيم أحمد عرابي وحتى أنور السادات.

فخر عرابي

في كل مذكرات زعماء مصر لا نجد اعترافًا بخطأ، أو لومًا للذات، أو ندمًا على فعل، كأن كتابها أنبياء معصومون، أو ملائكة لا يعرف الخطأ طريقه إليهم، ولا تدنو الخطيئة من أفعالهم. عندما كتب أحمد عرابي مذكراته بعد نفيه من مصر إلى جزيرة سيلان، سماها بنفس الطريقة التي كانت عليها الكتب القديمة من سجع ووزن، فحملت اسم «كشف الستار عن سر الأسرار في النهضة المصرية المشهورة بالثورة العرابية». وقد بدأ الرجل مفتخرًا بنسبه الذي تتبعه حتى وصل إلى علي بن أبي طالب، وهي عادة سخيفة توارثها المصريون من قبائل العرب. وحكى عرابي عن نشأته في الشرقية وعن عائلته الكريمة ووالده العالم المتصوف، ثم قص قصة التحاقه بالخدمة العسكرية في عهد سعيد باشا، ثم تناول عهد الخديوي إسماعيل، والتوتر الوطني نتيجة تدخل الأجانب في شؤون البلاد، ثم استعرض بعد ذلك تفاصيل الثورة العرابية وتوليه نظارة الجهادية، وقدوم الأسطول البريطاني ودخوله مصر، ثم تسليمه لنفسه ومحاكمته ونفيه.
والملاحظ أن تلك المذكرات لا يحمل كاتبها أي ندم تجاه أي موقف اتخذه في حياته، وتركز كلامه على نفي الاتهامات بالحماقة أو الاستسهال أو الإهمال في مواجهة الأعداء، وانفرد «عرابي» بالحوار الشهير بينه وبين الخديوي توفيق في ساحة عابدين، والذي تم تدريسه في المناهج المدرسية باعتباره حقيقة لا تقبل الشك، والذي زعم فيه قول الخديوي له «إنكم عبيد إحساناتنا» ورده بـ«إننا لسنا عقارًا أو تراثًا» وقسمه بالله بأن «المصريين لن يستعبدوا بعد اليوم»، وما يجعلنا نُنكر هذا الحوار جملة وتفصيلاً أن أطرافا عديدة قدمت شهادتها بشأن مظاهرة عابدين سنة ١٨٨١ ولم تورد هذا الحوار الغريب، كان منهم عبد الله النديم، والإمام محمد عبده، وأحمد باشا شفيق، فضلا عن الشهادات الأجنبية للقناصل المقيمين في مصر.
ومن المؤسف في مذكرات «عرابي» أنه يقول بأن الإنجليز باغتوهم دون استعداد، وهو ما لا يتسق مع المنطق، بخاصة أن أسطول الإنجليز وصل إلى الإسكندرية في منتصف مايو سنة ١٨٨٢، وأن المعركة بين الفريقين لم تقم إلا في سبتمبر، أي بعد أربعة أشهر. ومَن يطالع مذكرات أحمد باشا شفيق يجده يُنكر كثيرًا من حكايات «عرابي»، ويكشف صراحة أنه أمر الجيش بالتزام الراحة ليلة المعركة، وقراءة الأذكار!

خطايا الباشاوات

أما سعد باشا زغلول، فرغم أنه ترك مذكرات مستفيضة حققها الدكتور عبد العظيم رمضان، ثم الدكتورة لطيفة سالم، يمكن القول إنها كانت الأكثر صراحة بين مذكرات زعماء مصر، بخاصة أنه تحدث فيها بصراحة معترفا بإدمانه لعب القمار وغضب السيدة صفية زغلول أم المصريين منه بسبب ذلك، فضلا عن آرائه بصراحة شديدة في كثير من رجال عصره، مثل قاسم أمين أو عدلي يَكَن ومصطفى النحاس وغيرهم. لكن يؤخذ على الرجل أنه أغفل ذكر أدوار عظيمة لرجال مخلصين لعبوا دورا كبيرًا في ثورة ١٩١٩، مثل عبد الرحمن فهمي القائد السري للثورة. كما أن بعض الروايات التي قدمها بخصوص فكرة تأليف «الوفد» شابتها بعض الشكوك، بسبب إصرار الأمير عمر طوسون فيما بعد على القول إنه أول من دعا إلى فكرة تأليف وفد مصري للتفاوض على الجلاء.
وأيًا كانت السلبيات التي تضمنتها مذكرات الزعيم سعد زغلول، فإنه يحسب لها أنها كُتبت بشجاعة واستفاضة وذهن حاضر، ما جعلها تتميز كثيرا عن جميع مذكرات الساسة والزعماء من بعد.
وبالنسبة لإسماعيل صدقي، الذي تولى رئاسة وزراء مصر عدة مرات في عهدي الملك فؤاد والملك فاروق، فقد ركز في مذكراته على توضيح إنجازاته التنموية ومشروعاته الاقتصادية والحضارية التي حققها على أرض الواقع، بعيدا عن صراعات السياسة وشعاراتها، وقد قدم الرجل رأيه بصراحة وجرأة في جميع السياسيين، لكنه لم يتناول مناوراته لخدمة السراي، والإقدام على تعطيل الدستور وخدمة الطغيان، وبدت معظم تبريراته في هذا الشأن واهية.
أما إبراهيم عبد الهادي ثالث رئيس للحزب السعدي، بعد أحمد ماهر ومحمود فهمي النقراشي، وهو رئيس وزراء مصر عام ١٩٤٩ والذي جابه الإخوان المسلمين وحاربهم، فقد نشرت مذكراته في روزاليوسف عام ١٩٨٢ بتحرير محمد أبو طالب، وقد كشف فيها انخراطه في الجهاز السري لثورة ١٩١٩، والحكم عليه بالإعدام ثم تخفيف الحكم إلى السجن، لكن الغريب في الأمر أن الرجل يُنكر في مذكراته أي دور له في عملية اغتيال حسن البنا، في فبراير سنة ١٩٤٩، رغم كونه رئيسًا للوزراء في ذلك الوقت، وبشكل منطقي، وبعد أن أثبتت التحقيقات التالية تورط رجال شرطة معروفين في اغتيال مؤسس جماعة الإخوان، فإنه من غير الممكن تنفيذ أمر الاغتيال دون إذن وعلم «عبد الهادي»، وبخاصة أن حامد عمار، وكيل وزارة الداخلية وقتها، كان من المُقربين منه، وكذلك فإن الأيام التالية لاغتيال محمود فهمي النقراشي، رئيس الوزراء، على يد واحد من جماعة الإخوان، شهدت قَسَمَ كثيرٍ من السعديين علانية أمام «عبد الهادي» على ضرورة الثأر لـ«النقراشي».
كما كتب محمد فريد في مذكراته التي عنونها باسم «مذكراتي بعد الهجرة» جانبًا هاما من نضاله ضد الاحتلال البريطاني، وتنكُّر كثير من الساسة والأعيان له، ومحنته وفقره، وخلافه مع بعض القادة الوطنيين بشأن سبل المطالبة باستقلال مصر، لكن تلك المذكرات مثلها مثل باقي المذكرات تثير

من التساؤلات أكثر مما تقدمه من الإجابات حول أحداث وأمور بعينها، وحول اتهام متكرر طال الحزب الوطني في نضاله ضد الاحتلال بأنه كان يسعى لإعادة مصر كسلطنة تابعة للدولة العثمانية، بدلاً من منحها الاستقلال التام.
وإذا كان مصطفى النحاس باشا، الذي تولى رئاسة الوزراء خمس مرات قبل ثورة ١٩٥٢، لم يترك مذكرات بالمعنى الحرفي، فقد ترك بعض الشهادات غير المدونة على شكل مذكرات أملاها على سكرتيره الخاص، محمد كامل البنا، وظهرت في جزئين حققهما الكاتب أحمد عز الدين. وقد كتب المستشار طارق البشري دراسة هامة حول تلك المذكرات، أثبتت بما لا يدع مجالا للشك صحة صدور المذكرات عن الرجل. وتستعرض تلك المذكرات صراعات الوفد مع السراي، ورأي النحاس في شخصيات هامة مثل الملك فاروق والملك فؤاد والرئيس عبد الناصر ومكرم عبيد وغيرهم.

عجائب شهادة «نجيب»

وبالنسبة لرؤساء مصر، فقد شهدت مصر جدلا واسعا حول مذكرات أول رئيس جمهورية، وهو اللواء محمد نجيب الذي تولى رئاسة مجلس قيادة الثورة عقب القيام بانقلاب عسكري في ٢٣ يوليو ١٩٥٢. وكان من اللافت أن تلك المذكرات التي حملت عنوان «كلمتي للتاريخ»، وصدرت أولا في بيروت، قد حملت تبريرا عجيبا لكثير من الخطايا التي ارتكبت باسم الثورة، فمثلا نجد «نجيب» يتبرأ من إعدام خميس والبقري، العاملين الثائرين في مصانع كفر الدوار، بعد أسابيع قليلة من الثورة، ويقول إن ذلك كان تحت ضغط أعضاء مجلس القيادة، رغم أن تنفيذ أحكام الإعدام لم يكن ليتم دون تصديق رئيس الجمهورية. كما يحاول «نجيب» التبرؤ من حل الأحزاب ومحاكمات الثورة، رغم أنه خطب وقتها مهاجما ومتوعدا للرجعية، وتصل تبريرات الرجل إلى ادِّعاء محاولة تدخله عدة مرات للإفراج عن مصطفى النحاس، وفك الحراسة عن بيته.
واللافت في مذكرات نجيب أن الطبعة المصرية منها اختلفت تماما عن الطبعة البيروتية الأولى، إذ تم حذف كل العبارات التي تحمل انتقادا لأخبار اليوم ولمصطفى أمين من الطبعة المصرية، وهو ما كشفه الكاتب والمؤرخ الكبير صلاح عيسى في كتابه الشهير «مثقفون وعسكر».

رجال ناصر

وإذا كان الرئيس جمال عبد الناصر لم يترك لنا مذكرات، فإنه ترك لنا محاميا ومؤرخا مؤمنا بنبوته السياسية، هو الأستاذ محمد حسنين هيكل الذي كتب عدة كتب للرد على كل ما أُثير عن عبد الناصر من اتهامات وانتقادات، وربما أشهر تلك الكتب كتاب «لمصر لا لعبد الناصر» الذي دافع عن الرجل باستماتة غريبة.
واللافت أن معظم رجال عهد عبد الناصر تركوا مذكرات تكاد تمثل سلبًا لزعامته، بدءًا من خالد محيي الدين الذي قدم شهادته بعنوان «والآن أتكلم»، وحتى يوسف صديق الذي كتب أوراقا تضمنت يوميات حزينة عن غدر

ناصر وتسلطه. كما كتب النائب العام محمد عبد السلام ذكرياته في كتاب صغير حمل عنوان «سنوات عصيبة»، ثُم جاءت مذكرات عبد اللطيف بغدادي وسامي شرف صلاح الشاهد لاحقًا، لتحمل الكثير من المتناقضات.
وحتى أولئك الذين كانوا ضمن حاشية عبد الناصر لعدة سنوات، فقد فتحت مذكراتهم جراحًا غائرة بين محبي الزعيم وخصومه، وربما كان أبرز هؤلاء رجل المخابرات صلاح نصر، الذي حرر له عبد اللـه إمام كتابًا يروي فيه ذكرياته عن الزمن والناس.
ومؤخرًا سجل الزميل محمد الصباغ مجموعة لقاءات مع شمس بدران، وزير الحربية في عهد ناصر، تضمنت أسرار تلك السنوات، ولم تكد بعض تلك الأسرار تتسرب إلى وسائل الإعلام حتى هاجت الدنيا وماجت، بسبب ما ذكره «بدران» من طلب ناصر رؤية بعض الأشرطة التي كان يتم تسجيلها، بمعرفة المخابرات، لبعض الفنانات للسيطرة عليهن.

حرب السادات والشاذلي

أما الرئيس أنور السادات، فقد اختار الناشر أحمد يحيى لينشر له كتابه عن حياته الذي أسماه «البحث عن الذات»، وهو كتاب يشعر قارئه من الصفحة الأولى أنه موجه للغرب لا للمصريين، فهو يتحدث عن نبوءات، وتدين مُغرق في الصوفية، وثقافة متسعة، واهتمام بالعالم، فضلاً عن أنه يحمل كثير من النرجسية والاعتزاز بالنفس، بما يجعله كتابًا دعائيا. وعندما يحكي الرئيس عن وقائع يكون من الصعب على شهودها إنكارها أو الرد عليها إن جانبه الصواب، ربما خوفا وربما حرجا، لكن ذلك الأمر لم يكن مطلقا، فبعد أسابيع قليلة من نشر «البحث عن الذات» كتب سعد الشاذلي رئيس أركان القوات المسلحة المصرية في حرب أكتوبر مذكراته، لأنه اعتبر السادات كاذبا عندما حمله في مذكراته مسؤولية الثغرة. ولم يكتف الشاذلي بذلك وإنما دفعه الغضب من كذب السادات إلى أن قدم بلاغًا للنائب العام ضده، يتهمه بالكذب، وأذاع في مؤتمر صحفي اتهامات لا حصر لها للرئيس، واختار بعد ذلك الجزائر منفى له لعدة سنوات.
ولا شك أن مذكرات الشاذلي تفتح لنا إطلالة على نوع صعب من المذكرات، هو مذكرات العسكريين، فلا شك أن العسكريين بحكم عملهم ليس مُتاحا لهم الحكي والشهادة العلنية، بنفس القدر المتاح للمدنيين، لذا فقد اعتَبر نظاما السادات ومبارك مذكرات سعد الشاذلي دليل اتهام ضده، وحاكماه بتهمة إفشاء أسرار عسكرية.
وتبدأ مذكرات الرجل باستعراض لأهم الأسئلة التي كانت مطروحة، والتي لا تزال مطروحة عن حرب أكتوبر ومنها: كيف حدثت ثغرة الدفرسوار؟ وكيف تحولت المعركة من نصر مباغت إلى حصار غريب للجيش الثالث؟ وماذا كان يمكن أن يحدث لو لم تقع الخلافات بين القادة العسكريين والسادات؟ وما هو حجم الصدق فيما نشر من مذكرات عن حرب أكتوبر، خصوصًا ما ذكره الرئيس السادات في كتابه «البحث عن الذات»؟
إنَّ أخطر ما يقدمه «الشاذلي» في مذكراته أنه لم تكن هناك خطة هجوم

حتى عام ١٩٧١، وأن ما ذكره الفريق محمد فوزي، وزير الحربية خلال الفترة من ١٩٦٨ إلى ١٩٧١، عن وجود خطة هجومية غير صحيح. «كانت هناك خطة دفاعية هي الخطة ٢٠٠ وكانت هناك خطة أخرى تدعى (جرانيت) لكنها لم تكن خطة هجومية». وبعد قدومه لمنصب رئاسة الأركان تم وضع خطة أطلق عليها «المآذن العالية» كأول خطة هجومية، إلا أن تنفيذها كان يتطلب موافقة الاتحاد السوفيتي على توفير السلاح اللازم بأسرع وقت. ويحدثنا «الشاذلي» عن الصواريخ التي كان يطلق عليها القاهر والظافر، وكان يتم استعراضها في كل العروض العسكرية قبل ١٩٦٧. ويقول إن الدولة كانت تشجع الصحافة على الإشادة بقوة تلك الصواريخ التي يصل مداها إلى ٢٠٠ كيلومتر، وفي الحقيقة لم تكن تلك الصواريخ إلا حلقة من حلقات «البروباجندا» الكاذبة للنظام السياسي، وفي حرب يونيو لم تستخدم لأنها كانت أقرب ما يكون إلى «المنجنيق» على حد تعبير «الشاذلي». ويكشف الرجل أن السادات اختار الفريق أحمد إسماعيل وزيرا للحربية لعدة أسباب، كان من بينها علمه أنه مريض بالسرطان، وهو ما يجعله يأمن جانبه، لأن مريضا بالسرطان لن يطمح في الانقلاب على الرئيس.

أسرار العسكريين

وللأمانة فإن كل القادة العسكريين في مصر كتبوا مذكراتهم، لكنهم لم يتعرضوا للمحاكمة بتهمة إفشاء الأسرار العسكرية، لأنهم لم يسعوا إلى انتقاد السلطة الحاكمة. ويأتي على رأس هؤلاء الفريق محمد فوزي، وزير الحربية في عهد عبد الناصر، والذي نشر مذكراته في كتابين، الأول يحمل عنوان «حرب الثلاث سنوات» والثاني يحمل عنوان «إستراتيجية المصالحة».

ويأخذ كثير من المؤرخين العسكريين على الرجل حديثه عن خطط وإنجازات لها شاهد واحد هو نفسه، وادعاءه أنه كان مجمدا وقت قيام حرب يونيو، رغم رئاسته للأركان.

ومن هؤلاء أيضا الفريق مدكور أبو العز، قائد القوات الجوية منذ يونيو ١٩٦٧ وحتى أكتوبر من العام نفسه، والذي يُنسب له الفضل في إعادة بناء القوات الجوية بعد هزيمة ١٩٦٧.

ومن المذكرات الشهيرة عن حرب أكتوبر، مذكرات المشير عبد الغني الجمسي، وهو رئيس هيئة العمليات خلال الحرب، والذي تولى بعد ذلك منصب وزير الدفاع، وهو يتحدث عن تفاصيل الحياة اليومية للجنود المصريين وخطط الحرب، بما يتقارب إلى حد كبير مع ما ذكره «الشاذلي» في مذكراته.

بل أنه يُبرئ الشاذلي من تهمة التسبب في الثغرة، مؤكدا أن كل القادة العسكريين كانوا معترضين على تطوير الهجوم يوم ١٢ أكتوبر ١٩٧٣، وهو ما تسبب في الثغرة، لكن السادات أصر.

أما كمال حسن علي، فقد كان قائدًا مشاركًا في حرب أكتوبر، ثم تولى منصب وزير الدفاع فيما بعد، وتولى رئاسة الوزراء، وقد ترك لنا كتابًا بديعا بعنوان «مشاوير العمر».

ومؤخرًا نشرت بعض الصحف ما اصطلح على تسميته بمذكرات الفريق

سامي عنان، رئيس أركان القوات المسلحة المصرية وقت ثورة يناير، والتي سعى فيها إلى تأكيد رفضه ورفض القادة العسكريين لمعظم ممارسات الرئيس مبارك ونظامه، واعتراضه عليها.

مذكرات النساء

كانت المرأة وما زالت ركنا أساسيا في كل حدث تاريخي شهدته مصر، منذ ثورة ١٩١٩ وحتى إسقاط دولة الإخوان الأخيرة، فالنساء بطبيعتهن متمردات متجددات، ومحفزات للتغيير والتطور. من هنا تكتسب مذكرات النساء في مصر أهمية قصوى في قراءة تحولات المجتمع، خلال قرن من الزمان عرفت فيه مصر الحياة الحديثة.

إنَّ أولى المذكرات المدونة للنساء في مصر الحديثة هي مذكرات هدى شعراوي، رائدة الحركة النسائية في مصر، والتي كشفت فيها التفرقة بينها وبين شقيقها من جانب أسرتها، وكيفية تلقيها التعليم، وأخوالها من الجركس، وتحكي في المذكرات كيف كان وضع المرأة المصرية في بدايات القرن العشرين، وكيف كانت مستغلة جنسيا من جانب الرجال، ومهدرة الحقوق. لكن جانبًا هامًا في المذكرات تسكت عنه، بخاصة ما يتعلق بوالدها سُلطان باشا الذي تآمر مع الإنجليز وساعد في تمكينهم من احتلال مصر هو والخديوي توفيق سنة ١٨٨٢، كما أنها لا تذكر شيئا عن خصومتها مع سعد باشا زغلول.

كذلك تطل علينا مذكرات منيرة ثابت التي تحمل عنوان «ثورة في البرج العاجي»، كواحدة من المذكرات الهامة التي أرّخت للعمل النسوي في مصر، وتحكي فيه منيرة كيف خطبت في الحشود والجمعيات طالبة أن يكون للمرأة حقوق سياسية في أن تترشح وتنتخب، وكيف كان الساسة القدامى في مصر يسخرون منها ومن مطالبها، ويعتبرون تلك المطالب ضربا من الخيال. كما تحكي في تلك المذكرات عن الدور الذي لعبه مكرم عبيد باشا في مؤازرة ومساندة قضايا المرأة قبل ثورة يوليو، لكنها تحشد حكايات فخر شخصية لا حصر لها، حول فصاحتها ولباقتها وتأثيرها في مستمعيها.

أما الدكتورة بنت الشاطئ فتمثل نموذجًا حيًا للفتاة التي تكسر المألوف الذي اعتادته، بدءا من تعلمها في مجتمع وعهد يرفض تعليم النساء، وحتى تخصصها في الدراسات الإسلامية والنبوغ فيها. تحكي بنت الشاطئ في مذكراتها التي حملت عنوان «على الجسر» كيف قاومت إصرار أهلها على عدم تعليمها، ثم تمسك والدها بأن تتعلم نصف تعليم كقريناتها في دمياط، ثم تدور وتناور وتصر على استكمال التعليم حتى تتقن اللغتين الإنجليزية والفرنسية. وتمتد ثورة بنت الشاطئ لتختار شريك حياتها بنفسها، ليصبح رفيقها نحو التميز والتفوق، وهو الشيخ أمين الخولي، أحد مجددي الدين الإسلامي.

ومن يتابع مذكرات جيهان السادات المعنونة بـ«سيدة من مصر» يجد فيها الفتاة المغامرة الحرة التي تقتحم الحياة اقتحاما، وتختار شريك حياتها ضابطا سياسيا مضطهدا، وتفضله على خاطبين آخرين من عائلات أرستقراطية. ولا

شك أن صدور مذكرات جيهان السادات أولا باللغة الإنجليزية، كان دافعا إلى استعراض مزايا وسجايا ذاتية منحتها لنفسها، مثل إطلاق اسم «أم الأبطال» عليها خلال حرب ١٩٧٣، أو تنبؤ عراف لها بأنها ستصبح السيدة الأولى، أو وصفها لنفسها بأنها مثل يوسف بين إخوته. وتتضمن مذكرات السيدة الأولى أخطاء بالجملة في تواريخ ووقائع جرت خلال عهد زوجها، كانت مسار تندر بين كثير من الكتاب.

كذلك فإن مذكرات تحية كاظم، زوجة عبد الناصر، تتضمن كثير من الحكايات المفبركة التي تصطدم مع وقائع التاريخ، مثل قولها إن عبد الناصر ارتدى ملابسه الرسمية ليلة انقلاب ٢٣ يوليو، وسألته إلى أين يذهب بملابسه في هذه الساعة المتأخرة من الليل، في حين أن الثابت طبقا لكل الشهادات، وأهمها شهادة يوسف صديق، أن عبد الناصر كان يرتدي ليلة الانقلاب ملابس مدنية.

أما زينب الغزالي التي تنتمى إلى تيار الإسلام السياسي، والتي عرف عنها قوتها وصلابتها، فترسم لنا من خلال كتابها «صور من حياتي» خطوات نضالها في سبيل جماعة الإخوان المسلمين، ومحنتها في المعتقل خلال حكم الرئيس الأسبق عبد الناصر.

إنَّ زينب التي تبدو في مذكراتها كـ«ولي من أولياء اللـه الصالحين» تحمل ذات أفكار سيد قطب، بل تعتبره المفكر الأعظم للإسلام، وتدعي تعرضها لعملية تعذيب بشعة على أيدي زبانية عبد الناصر، على حد تعبيرها، ثم تقدم رؤى وتصورات لا يمكن أن تتوافق مع المنطق حول صلابتها وصبرها ورضا اللـه عنها، باعتبارها مجاهدة من أجل الإسلام، حتى إنها تُحرق بالنار دون تأثر، وتتعرض لنهش الكلاب لكنها تمتنع عن إيذائها، ويتم جلدها آلاف الجلدات دون أن تهتز أو تتألم، ولا تقدم زينب الغزالي أي مبررات فعلية للكراهية الشديدة التي تدعي أن جمال عبد الناصر يكنها لها، كما لا تقدم لنا سببًا مُقنعًا حول قيام زوجها بتطليقها.

على الجانب الآخر، كانت الفنانة إنجي افلاطون رمزًا للمناضلة اليسارية الوطنية المقاتلة، ورغم انتمائها لأسرة ثرية فإنها ككثير من اليساريين الأحرار حملت عبء التبشير بالعدالة الاجتماعية على كتفيها، وعاشت من أجل ذلك. لقد ثارت إنجي على مفاهيم عصرها الاجتماعية، عندما اختارت شريك حياتها شخصا مثقفا من أسرة متوسطة،

ثم ثارت على الظلم الاجتماعي والقهر السياسي معلنة أفكارها ومبادئها في سلاسة ودون خوف أو حسابات. ودخلت إنجي المعتقل وتعرضت لمتاعب ومصاعب، ورسمت بنضالها واحدة من أجمل لوحات الحرية في مصر الحبيبة.

أما الدكتورة نوال السعداوي، فتعد نموذجًا فذًا على كسر قوالب الزمن، واجتياز حواجز المجتمع، وتصحيح النظرة إلى المرآة، والتعبير ببساطة ودون خجل عن مشاعرها وتبني قضاياها وطرح أفكارها والمناداة بتحررها. وقد كان كتابها المعنون «مذكرات طبيبة» صادمًا للمجتمع، شأن معظم كتبها، عندما

بدأت بوحها بالقول «فتحت عيني على الحياة وبيني وبين طبيعتي عداء». وتعترف الكاتبة والطبيبة في جرأة كيف خرقت طبيعة المجتمع مرة تلو الأخرى، بدءا من الخروج من دون إذن والدتها، وشعورها بالتفرقة بينها وبين أخيها، وحتى اختيارها للرجل الذي أحبته بصدق لأنه احترم عقلها قبل جسدها. ويتصور كل مَن يقرأ كتاب الدكتورة نوال أنها تخاطب به الغرب وتريد أن تقول لهم إنها كسرت قواعد هذا المجتمع المتخلف الذي تنتمى له.

أما شاهندة مقلد، المناضلة اليسارية الشهيرة، فقد أثارت مذكراتها حالة من الجدل والغضب بين بعض العائلات، بخاصة عائلة صلاح الفقي التي اتهمتها بسب وقذف رموز العائلة، وصدر بالفعل حكم بالغرامة والمصادرة على شاهندة. وكانت المذكرات قد صدرت عن دار «ميريت» للنشر عام ٢٠٠٦ بتحرير شيرين أبو النجا، وأهم في هذه المذكرات، أو الأوراق، رصدها للحركة الشيوعية خلال الستينات، وكيف قتل زوجها صلاح حسين دفاعا عن مبادئ الاشتراكية، ثم كيف انقلبت السلطة الحاكمة بعد ذلك على النهج الاشتراكي ليتحول اقتصاد مصر إلى اقتصاد تابع.

المراجع

أولاً ــ الكتب :

1. أحمد باشا شفيق ـ مذكراتى فى نصف قرن. جزء أول ـ جزء ثانى. هيئة الكتاب.
2. أحمد رائف ـ البوابة السوداء ـ دار الزهراء للنشر.
3. أحمد شوقى ـ ديوان الشوقيات ـ دار الآداب.
4. أحمد عبد النعيم ـ حكايات فى الكاريكاتير والفكاهة ـ طبعة إلكترونية.
5. أحمد عرابى ـ مذكرات ـ هيئة قصور الثقافة.
6. أحمد مستجير ـ علم اسمه الضحك ـ دار المعارف.
7. اسماعيل صدقى ـ مذكراتى ـ هيئة الكتاب.
8. البرت فارمان ـ مصر وكيف غدر بها ـ ترجمة عبد الفتاح عنايت ـ هيئة الكتاب.
9. الصاوى حبيب ـ مذكرات طبيب عبد الناصر ـ هيئة الكتاب.
10. السيد الحرانى ـ بخلاء يجعلونك تضحك ـ دار أكتب.
11. أنور السادات ـ البحث عن الذات ـ المكتب المصرى الحديث.
12. أنور السادات ـ قصة اثلورة كاملة ـ المكتب المصرى الحديث.
13. أنيس منصور ـ عبد الناصر المفترى عليه والمفترى علينا ـ نهضة مصر.
14. أنيس منصور ـ من أوراق السادات ـ دار المعارف.
15. جمال الغيطانى ـ نجيب محفوظ يتذكر ـ أخبار اليوم.
16. رجب البنا ـ المصريون فى المرآة ـ مكتبة الأسرة.
17. زينب الغزالى ـ أيام من حياتى ـ طبعة خاصة.
18. سعد زغلول ـ مذكرات ـ تحقيق د. عبد العظيم رمضان. هيئة الكتاب.
19. سعد الشاذلى ـ مذكرات رحب أكتوبر ـ رؤية للنشر.
20. سليمان الحكيم ـ تحية كاريوكا بين الرقص والسياسة ـ دار الخيال.
21. سيد عبد العاطى ـ مغامرات صحفى مشاغب ـ هيئة الكتاب.
22. شوقى ضيف ـ تاريخ الفكاهة فى مصر ـ دار المعارف.
23. صلاح الرشيدى ـ المنافقون فى عهد مبارك ـ مكتبة مدبولى.
24. صلاح عيسى ـ مثقفون وعسكر ـ مكتبة الاسرة.
25. طارق البشرى ـ شخصيات تاريخية ـ دار الهلال.
26. عبد الرحمن الجبرتى ـ عجائب الآثار فى التراجم والأخبار ـ تحقيق: عبد العزيز جمال الدين ـ هيئة الكتاب.
27. عبد اللطيف البغدادى ـ مذكرات ـ المكتب المصرى الحديث.
28. عبد الوهاب بكر ـ مجتمع القاهرة السفلى ـ دار العربى للنشر.
29. على الجارم ـ ديوان ـ هيئة الكتاب.
30. على سلامة ـ مصطفى النحاس الذى لا يعرفه أحد ـ طبعة خاصة.
31. على صديق ـ الإخوان المسلمون بين إرهاب فاروق وعبد الناصر ـ دار الاعتصام.
32. على عشماوى ـ التاريخ السرى للإخوان المسلمين ـ مركز ابن خلدون للدراسات.
33. عماد هلال ـ البغايا ـ دار العربى للنشر.
34. عمر طاهر ـ صنايعية مصر ـ دار الكرمة.

35. محمد الباز ـ نكت الرئيس ـ كنوز للنشر.
36. محمد الجوادى ـ العمل السرى فى ثورة ١٩١٩ـ قراءة مذكرات ـ الشروق الدولية.
37. محمد الجوادى ـ مذكرات المرأة المصرية ـ دار الخيال.
38. محمد العزبى ـ الصحافة والحكم ـ كتاب الجمهورية.
39. محمد حسنين هيكل ـ خريف الغضب ـ دار الشروق.
40. محمد حسنين هيكل ـ مبارك وزمانه جزء ١ـ دار الشروق.
41. محمد صالح حرب ـ ذكريات ـ دراسة وتحقيق أحمد حسن الكتانى ـ هيئة قصور الثقافة.
42. محمد عبد الغنى الجمسى ـ مذكرات ـ هيئة الكتاب.
43. محمد عبد السلام ـ سنوات عصيبة ـ دار الشروق.
44. محمد متولى الشعراوى ـ ديوان ـ تحقيق د. صابر عبد الدايم ـ هيئة الكتاب.
45. محمود السعدنى ـ مسافر على الرصيف ـ مركز الاهرام للنشر.
46. محمود جامع ـ عرفت السادات ـ المكتب المصرى الحديث.
47. محمود عوض ـ افكار ضد الرصاص ـ دار المعارف.
48. مصطفى أمين ـ الكتاب الممنوع. جزء ١، جزء ٢ـ أخبار اليوم.
49. مصطفى أمين ـ سنة أولى سجن ـ أخبار اليوم.
50. مصطفى أمين ـ سنة ثالثة سجن ـ المكتب المصرى الحديث.
51. مصطفى أمين ـ شخصيات لا تنسى جزء ١ـ دار المعارف.
52. مصطفى بيومى ـ سمعان صيدناوى ـ سلسلة رواد الاستثمار ـ وزارة الاستثمار.
53. موسى صبرى ـ وثائق ١٥ مايو ـ أخبار اليوم.
54. هدى شعراوى ـ مذكرات ـ دار الهلال.
55. هنرى برجسون ـ الضحك ـ ترجمة على مقلد ـالمؤسسة العربية للنشر.
56. يحيى حقى ـ خليها على الله ـ دار المعارف.
57. يونان لبيب رزق ـ العيب فى ذات أفندينا ـ دار الشروق.
58. THOMAS RUSELL – Egyptian service- London – john muray

ثانيا- الصحف والمجلات :

1. أخبار اليوم ـ (جريدة) سلسلة تحقيقات أسرار ثورة ١٩١٩ـ مارس ابريل ١٩٦٣.
2. الاثنين ـ مجلة ـ (أعداد متفرقة).
3. الأهرام (أعداد متفرقة).
4. الدعوة ـ مجلة ـ الاصدار الأولى ـ ٦ مايو ١٩٥٢.
5. الشرق الأوسط ـ ٣ ديسمبر ٢٠٠٦ (مقال أنيس منصور. بخلاء ولكن ظرفاء).
6. المصرى اليوم ٢ أكتوبر ٢٠٠٩ .
7. المصريون ـ موقع الكترونى ـ مقال مصير جمجمة ـ ٢١ أكتوبر ٢٠٠٩.
8. المصور ـ مجلة ـ ٣٠ أغسطس ١٩٥٦ ـ ملف ١٢مارس ١٩٦٩ (خمسون عاما على ثورة ١٩١٩).
9. الهلال ـ مجلة ـ أعداد متفرقة.
10. الوطن ـ جريدة. ٦سبتمبر ٢٠١٤ (رفعت السعيد يكتشف وثائق جديدة لثورة ١٩١٩).
11. الوفد (أعداد نتفرقة).
12. أيام مصرية ـ مجلة ـ (أعداد نتفرقة).

ثالثاً ـ الوثائق:

- تراخيص بيوت العاهرات ـ وزارة الداخلية (نماذج متفرقة).
- دعوى مكتب سابا حبشى ومصطفى مرعى المحاميان ضد وزارة الداخلية ١٩٣٧.
- كتاب تذكارى لهيئة الاستعلامات بعنوان المرأة فى المعركة ـ ١٩٧٤.
- وثائق تعيين المستخدمين الأجانب فى نظارة الداخلية ١٨٩٨
- وثائق تعيين المستخدمين الأجانب فى وزارة المعارف ١٩٣٢.

صدر للكاتب

في مجال الدراسات الفكرية والتاريخية:

1. **التطبيع بالبيزنس** ـ أسرار علاقة رجال الأعمال بإسرائيل ـ ميريت للنشر ٢٠٠٩.
2. **مليارديرات حول الرئيس** ـ كنوز للنشر ٢٠١١ ـ ثلاث طبعات.
3. **موسم سقوط الطغاة العرب** ـ كنوز للنشر ٢٠١١.
4. **كُتب هزت مصر** ـ كنوز للنشر ـ ٢٠١٢.
5. **أفكار وراء الرصاص** ـ تاريخ العنف السياسي في مصر. كنوز للنشر ٢٠١٣.

في مجال السير والتراجم:

6. **الفريق سعد الشاذلي العسكري الأبيض** ـ سيرة ـ الرواق للنشر ٢٠١٢ (ثلاث طبعات).
7. **زينب الوكيل سيدة مصر** ـ سيرة حرم مصطفى باشا النحاس. الرواق للنشر ٢٠١٤.

في مجال الشعر:

8. **ثورة العشاق** ـ ديوان شعر ـ الوكالة العربية للنشر ٢٠٠٠.
9. **محمد الدرة يتكلم** ـ شعر ـ الوكالة العربية للنشر ٢٠٠٠.
10. **وردة واحدة وألف مشنقة** ـ شعر ـ مركز الحضارة العربية ـ ٢٠٠٥.
11. **بكاء على سلم المقصلة** ـ شعر ـ مركز الحضارة العربية ٢٠٠٩.

في مجال الرواية:

12. **ذاكرة الرصاص** ـ رواية ـ كنوز للنشر ٢٠١٣.
13. **انقلاب** ـ رواية ـ الرواق للنشر ٢٠١٤.
14. **البصاص** ـ رواية ـ الرواق للنشر ٢٠١٦.

المحتويات